

قراءة جديدة في نشأة دولة المماليك في مصر بين الصليبيين والمغول

إعداد

دكتور

صبري عبد اللطيف سليم

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية المساعد

استخدم الأيوبيون - شأن أسلافهم ممن حكموا مصر من الطولونيين
والفاطميين - المماليك في جيوشهم باعتبارهم جزءاً مهماً من كتائب
الفرسان التي كانت تسهم بقدر كبير في إنجاز المهمات الصعبة في أثناء القتال.

وكان هؤلاء المماليك يُجلبون إلى مصر - في الغالب - في سن صغيرة من
أماكن بعيدة في بلاد الترك وما يجاورها من بلاد شرقى أوربا، فتجرى عليهم
اختبارات عدة دقيقة للتأكد من خلوصهم من الأمراض والعيوب الجسمانية، وكذا التأكد
من ملامحة حواسهم، وجمال صورهم، وقوة بنيانهم.

وفي المراكز الخاصة كان هؤلاء المماليك يتلقون صنوفاً من التدريب العسكى
الحاد، فيكتسبون المهارة في الأداء والسرعة في الحركة، والدقة في تنفيذ الأعمال
المنوطة بهم، كما كانوا يتلقون آيات من القرآن، ويعلمون بعض قواعد اللغة العربية
وآدابها، فيكبرون على الإسلام ديناً، ومصر وطناً، والسلطان أباً روحياً لهم.

وفي نهاية عصر الأيوبيين ازداد المماليك مكانة ونفوذاً، فقد اعتمد عليهم الصالح
الدين أيوب اعتماداً واضحاً، وأحلهم تدريجياً في فرق خاصة في الجيش الأيوبي
وما أن ملأ من كثرة شغب جنده من الأكراد والخوارزميين الذين جلبهم معه من الشرق
حين كان يحكم حصن كيفا نائباً عن أبيه السلطان الكامل الذي توفى في الحادى
والعشرين من رجب ٦٣٥هـ / التاسع من مارس ١٢٣٨م.

وفي الحقيقة لم يكن نجم الدين أيوب ليعطى ثقته للمماليك عامة بل اختص منهم
من كان من صفاته هو، أو من عرف بولائه الشديد له، إذ لم يكن غافلاً عما فعلوه
بالعقود المعادل الثأرى حين عزلوه عن الحكم في مصر. وأرسلوا إليه هو يستدعونه إلى
مصر لاعتلاء عرشها والإمساك بمقاليد الحكم فيها.

وعلى الرغم من ذلك فقد بلغت العلاقة بين الصالح نجم الدين وكبار أمراء

المماليك في مصر أقصى حالات التوتر حين انسحبوا من دمياط، وتركوها فريسة سهلة للفرنسيين ومليكمهم القديس لويس التاسع، في الثانى والعشرين من صفر ٦١٧هـ/ السادس من يونيه ١٢٤٩م.

وشاعت الأكدار أن تقرب كثيرا بين كبار أمراء المماليك وأطماعهم فى الوصول إلى مقاليد السلطة السياسية فى مصر، فقد توفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب. فى ليلة النصف من شعبان ٦٤٧هـ/ الثالث والعشرين من نوفمبر ١٢٤٩م، وكان آنذاك فى الرابعة والأربعين من العمر، واستشهد الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ، وكان آنذاك فى السادسة والستين من عمره فى أثناء مقاومة الهجوم المباغت الذى شنه الصليبيون بقيادة الكندارتو شقيق الملك لويس التاسع على مدينة المنصورة فى الرابع من ذى القعدة ٦٤٧هـ/ الثامن من فبراير ١٢٥٠م.

ولم يحل وصول المعظم تورانشاه بن الصالح نجم الدين أيوب إلى مدينة المنصورة فى الحادى والعشرين من ذى القعدة ٦٤٧هـ/ الخامس والعشرين من فبراير ١٢٥٠م دون طموحات المماليك فى الوثوب على السلطة السياسية فى مصر، إذ سرعان ما نجحوا فى اغتياله فى أواخر المحرم من ٦٤٨هـ/ الثانى من مايو ١٢٥٠م بعد أن ظهر للعيان عزمه على التخلص من كبار أمرائهم.

واستوت شجرة الدر أرملة نجم الدين أيوب فى الثالث من صفر ٦٤٨هـ/ السابع من مايو ١٢٥٠م على عرش مصر مدة ثمانين يوما تقريبا، برضاء كامل من أمراء المماليك الذين كانوا فى مرحلة استكشاف وترقب لما سوف تسفر عنه الأحداث من نتائج حول تحديد وضعهم السياسى.

ولا أميل فى الحقيقة إلى الرأى الذى يعتبر فترة حكم شجرة الدر بداية لنشأة الدولة المملوكية فى مصر، إذ لم يكن وصولها إلى الحكم إلا لظروف خاصة نتجت عن كونها زوجة سابقة للصالح نجم الدين أيوب، الذى توفى أبناؤه الثلاثة: خليل، المغيث، تورانشاه تباعا، ولم ير المماليك مصلحة لهم فى ذلك الوقت - فى استمرار

دفة الأمور فى مصر فى أيدي ساداتهم الأيوبيين وعلى رأسهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام الذى كان يرى نفسه أحقَّ الأيوبيين بهذا الأمر.

إنَّ يمكن القول إنَّ وجود شجرة الدر فى سدة الحكم لم يكن إلاَّ مرحلة مؤقتة تمهيدية للوثوب على العرش من قبل المماليك، فمن المعروف أنَّ شجرة الدر لم يكن لديها من الأبناء من تورثه العرش بعد وفاتها، وأنَّ بقاءها فى الحكم - مهما طال - سيصبُّ فى النهاية فى مصلحة المماليك الذين كانوا فى حاجة ماسة إلى بعض الوقت حتى تستقرَّ الأمور عقب رحيل الفرنسيين عن مصر، واغتيال تورانشاه على أيديهم.

وعلى هذا، فأول سلاطين المماليك فى مصر هو عز الدين أيبك التركمانى الذى صار سلطاناً عقب زواجه من شجرة الدر فى التاسع والعشرين من ربيع الآخر ٦١٨هـ / الحادى والثلاثين من يوليو ١٢٥٠م، وقد تنازلت شجرة الدر بموجب هذا الزواج، وتحت ضغوط عدة عن عرش مصر.

وتم تكن نشأة الدولة المملوكية فى عهد أيبك ومن تلاه من سلاطين المماليك أمراً هائلاً، فقد توجب عليها مناهضة الصليبيين فى ساحل الشام بعد أن خرج لويس التاسع من مصر مدحوراً واستقرَّ فى عكا مجمعاً حوله الصليبيين هناك، ومحاربة المغول القادمين من الشرق بعد أن تداعت أمام سطوتهم كل القوى الإسلامية فى الشرق الإسلامى وعلى رأسها الخلافة العباسية فى بغداد التى نجح هولاكو خان فى الاستيلاء عليها، وقتل الخليفة المستعصم بالله فى يوم الأربعاء الرابع عشر من صفر ٦٥٦هـ / العشرين من فبراير ١٢٥٨م.

وجاء انتصار المماليك بقيادة السلطان المظفر قطز على المغول فى عين جالوت فى يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان ٦٥٨هـ / الثالث من سبتمبر ١٢٦٠م تدعيماً واضحاً لبنیان الدولة المملوكية فى مصر، واكتمل هذا البنیان بالإنجازات الضخمة التى تحققت فى عصر الظاهر بيبرس ٦٥٨ : ٦٧٦هـ. حيث اكتسبت الدولة المملوكية شرعيتها من قيام السلطان الظاهر بيبرس بإحياء الخلافة العباسية فى

القاهرة، وإعمال هيمنته على الحرمين الشريفين في الحجاز. كذلك نجح الظاهر بيبرس في إحكام قبضته على الشيعة الإسماعيلية في مصر والشام، كما نجح في كبح جماح البدو في صحراء مصر، وفي تأمين حدود مصر الجنوبية من تحرشات النوبة.

وفي مواجهة الصليبيين نجح الظاهر بيبرس في انتزاع عدد مهم من قلاعهم في مارابرة، وأرسوف البحرية ٦٦٣هـ، صفر ٦٦٤هـ، يافا، وانشاكية ٦٦٦هـ - بل - من أسطول بحري في ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م غزو جزيرة قبرص التي تعد مركز الإمداد الأول للصليبيين في ساحل الشام من قبل الصليبيين في غربى أوروبا، وأصبحت عناء و هي المعقل الرئيسى لهم في ساحل الشام واقعة تحت التهديد المباشر لقواته.

وفي مواجهة المغول، كشف بيبرس عن براعة سياسية تجلت في قبوله التحالف مع بركة خان بن جوجى بن جنكيز خان زعيم مغول القبجاق ضد بنى جلدتهم من مغول إيران بزعامة هولكو بن تولوى بن جنكيز خان ثم ابنه أباقا من بعده، بل إن بيبرس نجح عملياً في مواجهة مغول إيران حين هزم جيشهم وأتباعه من جند سلاجقة الروم بالأناضول في موقعة أبلستين في ذى القعدة ٦٧٥هـ / إبريل ١٢٢٧م.

وكان بيبرس قد هاجم بعنف من قبل في ذى القعدة ٦٦٤هـ / أغسطس ١٢٦٦م الأرمن - وهم صليبيون متحالفون مع مغول إيران - فقهروهم وأسر ابن ملكهم وفرض عليهم الجزية، فأذعنوا له مكرهين، واكتمل نجاح الظاهر بيبرس في إكساب دولة المماليك صفة الدولة التى توطدت أركانها، وثبتت دعائمها حين قرب إليه كبار أمراء الدولة، وأغدق عليهم الرتب والإقطاعات، فانصرفوا إلى خدمة الدولة طائعين وباذلين أقصى طاقتهم فى إدارتها وحماية مصالحها، بل لقد أثبت بيبرس نفسه إنه رجل دولة من الطراز الأول حين أقدم على اتخاذ خطوات إدارية حازمة منها:

١ - إجراء تعديلات إدارية حاسمة شملت نيابة السلطنة والوزارة والدواوين، وبخاصة ديوان المظالم.

٢- تنظيم القضاء، وجعله على المذاهب الأربعة بدلاً من قصره على المذهب الشافعى حتى لا يتعطل النظر فى قضايا الزعيرة.

٣- تقريب العلماء والقضاة وكبار المتصوفة ومنهم القبارى والشاطبى وأحمد البدوى.

٤- إبطال الضرائب التى فرضها السلطان الراحل قطز على الأهالى قبل خروجه إلى محاربة المغول فى عين جالوت.

٥- تشديد العقوبة على المخالفين لتعاليم الدين الإسلامى، ومن ذلك إغلاق الحانات وإبطال الخمر.

ويحاول هذا البحث من خلال هذه الصفحات، استكمال ما سبقه من دراسات جادة حول نشأة دولة المماليك فى مصر من خلال إلقاء الضوء على بعض التفاصيل الدقيقة المرتبطة بهذه النشأة التى تمت فى ظل ملوك أقوياء هم أيبك وقطز وبيبرس الذين حملوا على أكتافهم عبء نهوض هذه الدولة الفتية التى حفظت للمسلمين فى مصر والشام والحجاز كرامتهم وبلادهم ومقدساتهم من أن تنتهك على أيدى الصليبيين والمغول وحلفائهم فى وقت بالغ الحرج.

والآن، انقسم هذا البحث إلى مباحث أربعة هى :

١ - بين الأيوبيين والمماليك.

٢- المغول.

٣- المظفر قطز وعين جالوت

٤- تأسيس الدولة والظاهر بيبرس.

وأرجو أن اكون قد وفقت إلى عرض هذا الموضوع فى الصورة التى تـوازى أهميته.

المبحث الأول

بين الأيوبيين والمماليك

نجح أمراء المماليك في مصر في إقصاء الملك الأيوبي العادل الثاني عن العرش في شوال سنة ٦٣٧هـ - يونية ١٢٤٠م ولم يكن قد مضى على ولايته في الحكم بعد سوى عامين وبضعة شهور، وارتضوا مكانه أخاه الأكبر الصالح نجم الدين أيوب الذي اعتلى عرش مصر في نهاية شوال من نفس السنة^(١).

وقد رأى نجم الدين بعد أن شعر بفضل هؤلاء المماليك عليه أن يستكثر من جلب الكثير منهم صغاراً ليكونوا من صناعته هو، وليستغنى بهم تدريجياً عن أتباعه من الأكراد والخوارزميين الذين كانوا كثيرى الشغب والتمرد عليه^(٢). وبالطبع كان نجم الدين يهدف من وراء ذلك إلى تقوية نفوذه داخل مصر، وتدعيم سيطرته على الممتلكات التي آلت إليه خارجها^(٣).

وقد اختار الصالح نجم الدين جزيرة الروضة في نهر النيل سكناً لهؤلاء المماليك^(٤) وأسماهم المماليك البحرية لإقامتهم في هذا المكان^(٥) وأسماهم أيضاً

(١) ابن دقماق: الجواهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج ٢ ص ٣٣ - ص ٣٤، المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك ق ٢ ج ١ ص ٢٩٥، ابن إبراهيم الحنبلى: شفاء القلوب في مناقب بنى أيوب ص ٢٢٩.

(٢) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ١٦٢، الذهبي: العبر ج ٥ ص ١٤١، ابن سباط: مدق الأخبار ج ١ ص ٣٢٩، حسنين محمد ربيع: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ص ٦٦.

(٣) ولهم موير: تاريخ دولة المماليك في مصر ص ٣٧، سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ١٦٧.

(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٤١، السيوطى: حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٨١، عبد الله محمد جمال الدين: من تاريخ الشرق الإسلامى في العصر الحديث ص ١٨.

(٥) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك ق ١ ج ٢ ص ٣٤٠، ابن دقماق: الجواهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج ٢ ص ٣٧، ستانلى لينبول: سيرة القاهرة ص ١٧٣.

الصالحية نسبة إليه وكان يقيم معهم هناك في قلعتها أحياناً لمتابعة أحوالهم، وأفاض عليهم - فيما بعد - الإقطاعات والرواتب والجوامك^(١).

وقد حاول المماليك استغلال مكانتهم عند السلطان نجم الدين في تحقيق مصالح خاصة فحاولوا فرض سطوتهم على العامة، وابتزاز بعضهم لكنهم اصطدموا بشخصية السلطان نفسه، وكان قوى النفس مهابة حازماً، عفيف اللسان والذيل كما تقول بعض المصادر التاريخية^(٢).

وظهر في مجال المعارضة أيضاً الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام الشافعي الذي رفض أفعالهم، وأصرَّ على بيع كثير منهم في مزاد علني، وردَّ أنثمان ببيعهم إلى الدولة مال المسلمين^(٣).

وقد شاعت الأقدار أن ترتبط آخر الحملات الصليبية على مصر بآخر أيام الصالح نجم الدين أيوب، ذلك أن البابا في روما وملوك دول غربي أوروبا لم يرقهم عودة بيت المقدس إلى أيدي المسلمين مرة أخرى سنة ٦٤٢هـ، ومن ثمة قدمت الحملة الصليبية السابعة التي قادها الملك الفرنسي القديس لويس التاسع إلى مصر، ونجحت في الاستيلاء على مدينة دمياط دون مقاومة في الثاني والعشرين من صفر سنة ٦٤٧هـ الموافق للسادس من يونيو سنة ١٢٤٩م^(٤).

ولم يحتمل نجم الدين سماع هذه الأنباء فعاد مسرعاً من دمشق حيث عسكر عند

(١) حسنين محمد ربيع: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، ص ٦٧ ص ٧٠.

(٢) ابن قزواغلي: مرآة الزمان ق ٢ ج ٨ ص ٧٧٥، النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٩ ص ٣٣٦، الذهبي: العبر ج ٥ ص ١٩٣.

(٣) السبكي: طبقات الشافعية ج ٥ ص ٨٠، السيوطي: حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤، وانظر دائرة المعارف بزرگ إسلامي مجلد أول ص ١٩٤ باللغة الفارسية.

(٤) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ١٨٣، بيبرس المنصوري: مختار الأخبار ص ٨، جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر ص ١٠٧.

مدينة أشموم طناح وهناك واقته جموع جنده الذين انسحبوا من دمياط وتركوها للفرنسيين، فاشتد غضبه وعنف كبار أمراء المماليك تعنيفاً شديداً حتى همَّ بعضهم بالوثوب عليه وقتله غير أن الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ أتابك العسكر منعهم وقال: اصبروا فهو على شفا، فإن مات فقد استرحتم منه وإلا فهو بين أيديكم^(١).

وهكذا ساءت العلاقة بين السلطان نجم الدين وكبار أمراء المماليك في جيشه، فقد عزَّ عليه تخاذلهم عن حماية ملكه في أثناء غيابه، وهمَّ بهم لولا مرضه المكين الذي اشتد به، واحتياجه إليهم في مواجهة الظروف الصعبة المقبلة، أما أمراء المماليك فكانوا يرون الموقف بصورة مختلفة، فالسلطان قد تناسى الآن أنهم كانوا أصحاب الفضل في اعتلائه عرش مصر منذ عشر سنوات، والسلطان - كما كشفت لهم الأحداث عنه - رجل عسوف جبار يقدم على إيذاء معارضيه ولو كانوا من أقرب الناس إليه دون رحمة، فقد أمر بخنق أخيه العادل في محبسه في شوال سنة ٦٤٦هـ، وعاقب امرأة أبيه - أم أخيه العادل - وأخذ منها الأموال والجواهر، كما هلك في محبسه جماعة من الأمراء وأكثر من خمسة آلاف سجين^(٢) وبالتالي فإن انتقامه منهم سيكون موجلاً إلى حين.

وجاءت وفاة نجم الدين في ليلة الاثنين النصف من شعبان سنة ٦٤٧هـ حلاً لهذه المعضلة التي نشبت بينه وبين كبار أمراء المماليك في جيشه في وقت شديد الحرج والخطورة.

ويهمنا أن نتوقف هنا عند مسألة مهمة ترتبط كثيراً بنشأة الدولة المملوكية في

(١) ابن قزاعلى: مرآة الزمان ج ٨ ق ٢ ص ٧٧٤، الذهبى: العبر ج ٥ ص ١٩٢، ابن دقماق:

الجواهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج ٢ ص ٣٨.

(٢) المسندى: تحفة ذوى الأكباب ج ٢ ص ١٤٧، ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٣٧، ابن إبراهيم

العنبلى: شفاء القلوب في مناقب بنى أيوب ص ٣٢٩.

مصر وهى علاقة الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ أتابك العسكر بكبار أمراء المماليك فى الفترة ما بين وفاة السلطان نجم الدين أيوب واستشهاد فخر الدين فى الرابع من ذى القعدة سنة ٦٤٧هـ، وهى فترة لا تتجاوز ثلاثة أشهر.

يقول مؤرخ معاصر للأحداث "وبعد وفاته - أى السلطان نجم الدين أيوب - اجتمع الأمراء وأكابر الدولة، وحلفوا لولده المعظم تورانشاه، وكان بحصن كيفا، وحلفوا لفخر الدين يوسف بن الشيخ لاحتمال أن يتعذر وصول المعظم إلى مصر، واستحلفوا جميع العساكر والأكابر بمصر والشام، وتولى فخر الدين يوسف بن الشيخ تدبير المملكة وأقطع البلاد بمناشيره^(١).

ولما كان الأمير فخر الدين يوسف لا ينتمى من ناحية الأصل إلى الأيوبيين الذين هم من أصل كردى، ولا إلى المماليك الذين لا أصل لهم^(٢) أى أنه ليس من أصحاب الحق الشرعى فى الحكم ولا من هؤلاء المتوثبين المتعطشين للسيطرة على الحكم، فقد أصبح اصطدامه بأمراء المماليك أمراً وشيكاً لا مفر منه.

ولم يخفف خروج كبير زعماء المماليك البحرية فارس الدين أقطاى إلى حصن كيفا لإحضار المعظم تورانشاه^(٣) من هناك شيئاً من التوتر بين الطرفين، فقد عزم المماليك على التخلص من الأمير فخر الدين فنهبوا داره، وحاولوا قتله، فسارع إلى

(١) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٣٧، المقرئى: المقفى الكبير ج ٢ ص ٦٢٥، وانظر أيضاً: ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٣٢، وهو يذكر أنه تم تعيين الأمير فخر الدين يوسف ولياً لعهد المعظم تورانشاه.

(٢) الذهبى: العبر فى خبر من غبر ج ٥ ص ١٩٤، ابن تغرى بردى: المنهل الصافى ج ١ ص ١٨٤، ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٣٩ ويذكر اسمه فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ صدر الدين محمد بن عمر بن على بن محمد بن حمويه الجوينى.

(٣) ابن دقماق: الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين ج ٢ ص ٣٩، ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٣٧، ابن إبراهيم الحنبلى: شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص ٣٧٩.

استدعاء الأمراء والأكابر وقال: "أنا مالى طمع فى الملك وإنما أحفظ بيت أستاذى حتى
رحىء ولده ويتسلم البلاد"، فاعتذروا له، وحلفوا على تأييده، وإظهاراً لحسن النية فقد
فخر الدين جماعة من ممالك السلطان الراحل ليتوجهوا إلى دمشق لما وصلها
المعظم تورانشاه فى آخر رمضان سنة ٦٤٧هـ لاستعجاله فى الحضور إلى مصر،
يهر أن بعض هؤلاء لم يكونوا عند حسن ظن فخر الدين فيهم، فقد أوهموا المعظم
تورانشاه أن فخر الدين قد حلف العسكر لنفسه فقرر المعظم أن يتوقف فى دمشق وأن
ينفق أموالها فى العساكر وحلف الممالك الذين بعثهم فخر الدين إليه على قتل فخر
الدين^(١).

وهكذا شمر الممالك عن سواعدهم للتخلص من الأمير فخر الدين يوسف بعدما
نجحوا فى إيقار صدر المعظم تورانشاه عليه، غير أن استشهاد فخر الدين وهو يدافع
عن مدينة المنصورة ضد الصليبيين - وكان آنذاك فى السادسة والستين من العمر -
قد حل القضية فى صراع الممالك ضده من أجل الاستحواذ على السلطة. ولم يسلم فخر
الدين - بعد وفاته - من أذى ممالكه هو، فقد جاءوا إلى داره فكسروا صناديقه ونهبوا
أكثر ما فيها، كما نهبوا أمواله وخيله حتى قدور حمامه وأبواب داره، وما نفعه تربيته
لهم، وإحسانه إليهم^(٢).

الجهاد لغزو الممالك

وهكذا أفسحت وفاة الأمير فخر الدين يوسف المجال أمام الممالك الذين أظهروا
براعة عسكرية فائقة حين تمكنوا من هزيمة طليعة الجيش الصليبي التى اقتحمت مدينة

(١) ابن قزوغلى: مرآة الزمان ج ٨ ق ٢ ص ٧٧٦، النويرى: نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣٣٨،
ص ٣٥٣.

(٢) ابن قزوغلى: مرآة الزمان ج ٨ ق ٢ ص ٧٧٧، النويرى: نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣٣٩، ابن
كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٩٠.

المنصورة بقيادة الكونت أرتوا شقيق الملك لويس التاسع فى الرابع من ذى القعدة سنة ٦٤٧^(١).

وبرزت شخصية الفارس ركن الدين بيبرس البندقدارى الذى تولى القيادة فى ذلك الوقت العصيب، فنجح فى قيادة المماليك البحرية إلى تحقيق النصر الحاسم فى تلك الموقعة، وحماية القصر السلطانى فى المنصورة من السقوط فى أيدي الصليبيين، فقالوا بذلك تقدير العامة وكذلك شجرة الدر زوجة أستاذهم الراحل السلطان نجم الدين ايوب، التى أيقنت - آنذاك - بصورة عملية أن المماليك البحرية قد أصبحوا قوة فعالة يمكن الاعتماد عليها فى المواقف الصعبة^(٢).

ولم يتوقف نجاح المماليك البحرية بقيادة بيبرس عند ذلك النصر إذ إنهم قد هاجموا الجيش الرئيسى للملك لويس التاسع فى يوم الجمعة السابع من ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ الموافق للحادى عشر من فبراير سنة ١٢٥٠ م، وكان هذا الجيش قد أفلح فى العبور إلى الضفة الجنوبية لنهر اشموم واستولى على معسكر المصريين فى جديلة أى أنه قد أصبح فى أقرب نقطة إلى مدينة المنصورة من ناحية الشمال الشرقى، وشرع بعد العدة للهجوم على المدينة فى محاولة يائسة لرد الاعتبار وإنقاذ ما يمكن إنقاذه بعد مصرع الكونت أرتوا شقيق الملك وهلاك معظم رجاله هناك على أيدي المماليك والأهالى، وقد أسفرت معركة يوم الجمعة أيضاً عن نتيجة غير مرضية للملك لويس وأتباعه فقد فقد الصليبيون بها عدداً لا يستهان به من فرسانهم ومشاتهم، وتحطمت معظم معداتهم وعتادهم، مما أضعف قوتهم، وساهم إلى حد كبير فى التعجيل بالنهاية

(١) أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ١٨٠، المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٢٠٣، ابن سباط: صدق الأخبار ج ١ ص ٣٤٧.
(٢) ابن أليك الدوادارى: كنز الدرر وجامع الغرر ج ٧ ص ٣٧٦، هابس أبرهارد ماير: تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٧٨.

الأكمة التي منبت الحملة الصليبية بها^(١).

وفي الحادى والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٤٧هـ، وصل المعظم تورانشاه إلى مدينة المنصورة^(٢) يرافقه جماعة من المماليك البحرية الذين أرسلوا إليه من قبل فى حصن كيفا ودمشق وعلى رأسهم الأمير فارس الدين أقطاي، ومرة أخرى برز دور المماليك البحرية حيث شكلوا أهم عناصر الانتصار على الجيش الصليبي عند فارسكور فى الثانى من المحرم سنة ٦٤٨هـ، وأسر الملك لويس التاسع عند قرية مذبة عبد الله واقتياده إلى دار ابن لقمان فى المنصورة^(٣).

ولم يفقد المماليك البحرية خلال ذلك كله أكثر من مائة نفس^(٤) بمعنى أنهم احتفظوا على الرغم من بلائهم البطولى فى هذه المعارك بقوتهم العسكرية كاملة، وبالتالي أصبحوا مترقبين للمكافأة التي ينبغي أن يجزلها لهم المعظم تورانشاه.

ولم تأت الرياح بما تشتهي السفن، فالمعظم تورانشاه بعد أن استقامت له الأمور، وانتهى أمر الحملة الصليبية إلى الفشل استشر تسلط المماليك البحرية وتعاضم أمرهم، فرأى أن يبادر إلى إقصائهم وتقليص نفوذهم، فعمد إلى اتخاذ عدة مواقف ضدهم أذنت باحتدام الصراع معهم ومنها:

أ- إخلاف وعده مع فارس الدين أقطاي زعيم البحرية، وكان قد وعده أن يجعله

(١) جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر ص ١٨٥ ص ١٨٦. نقلاً عن:

Kitchin: A history of France vol I. P. 344.

(٢) أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ١٨٠، المقرئى: المقفى الكبير ج ٢ ص ٣٦٠،

ابن شاهين الملطى: نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من الملوك والسلطين ص ٢٠.

(٣) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ١٨٤، بيبرس المنصورى: التحفة الملوكية فى الدولة

التركية ص ٢٥، النويرى: نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣٥٦.

(٤) الذهبى: العبر فى خبر من غبر ج ٥ ص ١٩٦، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج ٦

ص ٣٦٦، ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٣٩.

حاكماً على الأسكندرية، فلما أرسل إليه أقطاي يذكره بوعده على لسان بعض خواصه كان رد المعظم "أعطيه إن شاء الله جياً مليحاً يليق به" كما بلغ أقطاي أيضاً أن المعظم عزم على إرساله ببشرى الانتصار على الفرنج إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، مع توصية بالقبض عليه وقتله بمجرد وصوله إليه^(١).

ب- عزله عدداً من كبار أمراء البحرية عن وظائفهم واستبدلهم بأعوانه الذين أحضرهم معه من حصن كيفا فقد عين الطواشي مسرور الخادم - وهو خادمه - أستاذ داره، وأقام صبيحاً - وكان عبداً حبشياً فحلاً - أمير جاندار، وجعل إليه أموره كلها، وأنعم عليه بأموال وإقطاعات، كما جعل له امرأة مائة وخمسين فارساً، وأمر أن تصاغ له عصا من ذهب^(٢).

ج- إهانته ممالك أبيه الكبار حتى إنه كان يسميهم بأسمائهم دون ألقاب أو نعوت^(٣) بل إنه كان إذا جلس مع ندمائه في الليل لمعاقرة الخمر جمع ما بين يديه من الشموع، وضرب رؤوسها بسيفه حتى تنقطع ويقول هكذا أفل بالبحرية^(٤).

(١) جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر ص ٢٢٣-٢٢٤، نقلاً عن ابن شاعر الكتبي: عيون التواريخ (مخطوط) ج ٢٠ لوحة ٢٨، وانظر أيضاً: ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص ٣٨٠.

(٢) ابن قزويني: مرآة الزمان ج ٣ ق ٢ ص ٧٨١، النويري: نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣٦٠، هابس ابرهارد: تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٨٠.

(٣) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٣٨، العيني: عقد الجمان ج ١ ص ٢٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧١.

(٤) ابن أبيك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر ج ٧ ص ٣٨٢، المقرئ: المقفى الكبير ج ٢ ص ٦٣١، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص ٣٨٠.

د- إسماعيل لزوجته أبيه شجرة الدر وكانت لما وصل هو إلى القدس مضت هي إلى القاهرة فأرسل إليها بتهديدها ويطالبها بالأموال والجواهر؛ فخافت منه وأرسلت إلى المماليك تحرضهم عليه^(١) بعد أن تأكدت من تنكره لها وهي التي حفظت له الملك بعد وفاة أبيه السلطان نجم الدين أيوب وأرسلت إليه تستدعيه من حصن كيفا.

وبصور المؤرخ أبو شامة (ت/٦٦٥هـ) النهاية المروعة التي انتهت إليها أمر الصراع على السلطة بين المماليك وسلطانهم المعظم تورانشاه فيقول: "وأخبرني من شاهد قتله أنه ضرب أولاً فتلقى الضربة بالسيف بيده فجرحته، واختبئ الناس وذلك بعد فراغهم من الأكل على السماط، فأظهر أن ذلك من بعض الحشيشية (الإسماعيلية)، فأشار بعضهم على الباقيين بإتمام الأمر فيه وقالوا: بعد جرح الحية لا ينبغي إلا قتلها فركبوا ولبسوا السلاح وأحاطوا بخيمته وبرجه الخشبي لأنه كان في الصحراء بإزاء الفرنج - خذلهم الله - فدخل البرج خوفاً منهم فأمروا زرقاً بإحراق البرج فامتنع فضربت عنقه، ثم أمروا زرقاً آخر فرمى البرج بنفط فأحرقه، فخرج من بابه وناشدهم الله في الكف عنه والإقلاع عما نعموا عليه وطلب تخلية سبيله، فلم يجب إلى شيء من ذلك فدخل في البحر إلى أن وصل الماء إلى حلقه فرجع، فضربه البندقاري بالسيف فوق في الماء، ثم ضربه بالسيف ضربة أخرى على عاتقه فنزل السيف من تحت إبط اليد الأخرى فوق قطعيتين، وكان قتله في أواخر المحرم يوم الاثنين^(٢) سنة ٦٤٨هـ/٢ مايو سنة ١٢٥٠م.

-
- (١) ابن قزوين: مرآة الزمان ج ٨ ق ٢ ص ٨٧٢، النويري: نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣٦٠، المعنى: عقد الجمان ج ١ ص ٢٤.
- (٢) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ١٨٥، وانظر أيضاً: ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٣٨، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص ٣٨٠.

السلطانة شجرة الدر ١٢٥٠م / ١٢٤٨هـ

وبمقتل تورانشاه تداعت الدولة الأيوبية بمصر وأطاح المماليك في القبض على زمام السلطة في مصر، وأصبح لازماً عليهم أن يحسموا الأمر وأن يقرروا، وكانت لديهم عدة خيارات صعبة منها:

أ- تتويج شجرة الدر سلطانة على مصر.

ب- تسليم السلطة في مصر لأحد الملوك الأيوبيين في الشام وعلى رأسهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب الذي سارع إلى الاستيلاء على دمشق وأصبح متلفاً على التوجه إلى مصر لانتزاعها من أيدي المماليك وإعادتها إلى نفوذ البيت الأيوبي.

ج- تعيين أحد كبار زعماء المماليك سلطاناً لمصر ومن هؤلاء عز الدين أيبك، وفارس الدين أقطاي.

وقد أسفر اجتماع أمراء المماليك من الصالحية والبحرية عن أن يقيموا شجرة الدر زوجة الملك الصالح في المملكة وأن يكون عز الدين أيبك الجاشنكير الصالح المعروف بالتركمانى أتابك العسكر، وحلفوا على ذلك وخطب لشجرة الدر على المنابر وضربت السكة باسمها، وكان نقشها عليها المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين ولدة الملك المنصور خليل، وكانت صورة علامتها على المناشير والتوقييع ولدة خليل^(١).

وكان على السلطانة شجرة الدر منذ توليها الحكم في ٣ صفر ١٢٤٨هـ / ٧ مايو ١٢٥٠م أن تبادر إلى مواجهة الصعوبات التي كانت تعوق استقرارها في هذا المنصب الخطير ومنها:

(١) أبو الفداء: المختصر في أخبار البه - ٣ ص ١٨٢، النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب - ٢٩ ص ٣٦٢، السيوطي: حسن المحاضرة - ٢ ص ٣٦.

١- إنهاء الوجود الصليبي في مصر

وقد بدأت المفاوضات بهذا الشأن بين المصريين والفرنج، وكان يمثل شجرة الدر والأمراء البحرية الأمير حسام الدين بن أبي على لما كانوا يعرفونه عنه من رجحان عقله وحسن تقديره للأمور، واعتماد مولاهم الملك الصالح عليه، وبعد فترة من المباحثات أبرم الفريقان معاهدة الصلح فتم الاتفاق على:

- أن يرد الملك الفرنسي مدينة دمياط إلى المصريين.

- أن يطلق سراح المسلمين الذين في أسره.

- ألا يقصد سواحل الإسلام مرة أخرى.

- أن يدفع مبلغ ثمانمائة ألف دينار نظير إخلاء سبيل الأسرى المسيحيين من جهة، وعوضاً عما أحدثوه بدمياط من النهب خلال إقامتهم بها من جهة أخرى.

- على الملك أن يدفع نصف الفدية قبل إطلاق سراحه، والنصف الآخر بعد مغادرته مصر ووصوله إلى عكا^(١).

وفي يوم الأحد ٤ صفر سنة ٦٤٨هـ / ٨ مايو ١٢٥٠م أفلعت السفن المسيحية من دمياط قاصدة عكا، نقل فلول القوات الصليبية، بعد أن أضنتها الهزائم، واستبدت بها الكوارث، حتى لم يبق منها إلا أقلية محطمة^(٢).

ب- المعارضة الأيوبية في الشام

وقد كان الأيوبيون هناك يشعرون بغضاضة كبيرة من جراء اجتراء المماليك في مصر على قتل تورانشاه، وتنصيبهم شجرة الدر سلطانة على عرش مصر التي كانت

(١) ستيفن رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٤٦٦-٤٦٨، جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر ٢٢٢-٢٢٣.

(٢) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٣٩، العيني: عقد الجمان ج ١ ص ٢٩، ابن سباط: صدق الأخبار ج ١ ص ٣٥١.

تعتبر واسطة العقد في الدولة الأيوبية، ومن ثم قبول طلب الأمراء المماليك إلى بعض نظرائهم في الشام كي يعلنوا الولاء للسلطانة الجديدة بالرفض التام، بل إن الملك الأيوبي السعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل بن أيوب قد بادر بالاستيلاء على مدينة غزة ثم صار إلى قلعة الصبيبة وملكها، وثار الطواشي بدر الدين لؤلؤ الصالحى - نائب الكرك والشوبك - وركب إلى الشوبك وأخرج الملك المغيـث عمر بن العادل بن الكامل من سجنه، وملكه الكرك والشوبك وأعمالها وحلف له الناس، وقام يدبر أمره لصغر سنه^(١).

ومن ثم فقد شرع الأيوبيون في الشام تحت قيادة الملك الناصر صلاح الدين بـمـسـافـة - أكبر الملوك الأيوبيين سلطاناً - آنذاك - في التوجه إلى مصر لانتزاعها من أيدي منجرجر الدرد والمماليك الذين يؤيدونها، وكان الملك الناصر صلاح الدين نفسه يحلم في الحصول على ما كان لجده الكبير الناصر صلاح الدين قاهر الصليبيين في حطين، ومحرر القدس، لكن شتان ما بين الرجلين رغم اتفاقهما في الاسم واللقب.

ج- إلقاء المصريين ورجال الدين

ولمواجهة هذه المشكلة أخذت شجرة الدر تتقرب إلى العامة وتسعى إلى إرضائهم بكافة الوسائل ذلك أن المصريين في معظمهم قد أنفوا من أن تتولى امرأة حكم بلادهم، وكان القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز الشافعي قد بايعها بالسلطنة على كره منه، كما أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام كتب مقامة يذكر الناس فيها بما يبغى الله المسلمين إذا ولوا أمورهم امرأة، ويبدو أن ذلك كان وراء علامات الرفض التي ظهرت في شكل اضطرابات عديدة حدثت في القاهرة^(٢)، ولا يستبعد أن يكون بعض

(١) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٣٩، أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ١٨٢،

المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ق ١ ج ٢ ص ٢٢٦، العيني: عقد الجمان ج ١ ص ٢٢.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ج ٢ ص ٣٦، ابن إياس: بدائع الزهور

ج ١ ص ٢٨٦، أحمد مختار العبادي: في التاريخ الأيوبي والمملوكي ص ١١٨.

المماليك من أنصار فارس الدين أقطاي، فأخذ يحرض عليها من طرف خفي.

د- استرضاء الخلافة العباسية

حاولت شجرة الدر منذ توليها الحكم في مصر استرضاء الخليفة العباسي المستعصم بالله فقد نسبت لقبها إليه في النقش الذي على سكتها، غير أن ذلك لم يسل رضا الخليفة الذي كان يعتبر الرئيس الروحي للمسلمين جميعا، ومن ثمة فإن موافقته على تعيين أحد الحكام المسلمين في منصبه كانت تعتبر المصدر الوحيد لإكساب هذا الحاكم صفة الشرعية.

فلما أرسل أمراء المماليك في مصر إليه في بغداد يطلبون موافقته على تعيين شجرة الدر سلطنة على مصر، جاء جوابه إن كانت الرجال قد عدت عندكم فأخبرونا حتى نسير إليكم رجلا^(١) أما سمعتم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة وأنكر عليهم بسبب ذلك غاية الإنكار^(٢).

وهكذا أيقنت شجرة الدر أن استمرارها في الحكم أصبح مستحيلا فالأيوبيون في الشام ناثرون والمصريون ورجال الدين غاضبون، والخليفة العباسي رافض، والمماليك لن يستمروا طويلا في تأييدها، فрат بحكمة وذكاء أن تتنازل عن العرش طواعية بعد فترة بلغت ثمانين يوما تقريبا^(٣).

(١) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ٢ ص ٣٦٨، ستانلى لينبول: سيرة القاهرة ص ١٧٥.

(٢) العربى: عقد الجمان ج ١ ص ٣٤، ابن اياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ١ ص ٢٨٧.

(٣) ابن شاهين الملقب: نزهة الأساطين ليمن ولى مصر من السلاطين ص ٦٨، قاسم عبده قاسم: الأيوبيون والمماليك ص ١٢٩.

السلطان عز الدين أيبك ٦٤٨ : ٦٥٥ هـ ١٢٥٠ : ١٢٥٧ م

أحد مماليك الصالح نجم الدين أيوب، اشتراه في حياة أبيه السلطان الكامل، وظل في خدمة الصالح بعد أن أصبح سلطانا على مصر، وترقى في أيامه حتى صار من كبار الأمراء الصالحية، وكان الصالح نجم الدين قد جعله خصيصة بخدمته، فكلفه برؤى وظيفة الجاشنكير (أى متذوق طعام الملك وشرابه)^(١) وعلى هذا فهو لم ينتم مطلقا إلى المماليك البحرية.

ولما اختار أمراء المماليك شجرة الدر سلطنة عينوه أتابكا للعسكر أى قائدا عاما للجيش، فما أن عزمت شجرة الدر على اعتزال كرسي السلطنة حتى عينوه سلطانا مكانها وزوجوه بها في التاسع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٦٤٨ هـ / الحادى والثلاثين من يوليو سنة ١٢٥٠ م، وأبطلت السكة والخطبة التى كانت باسمها^(٢).

ولم يكن اختيار أيبك من قبل الأمراء سلطانا؛ لأنه صاحب سن أو نفوذ أو كثرة أتباع، وإنما لكونه من أواسط الأمراء، وليس من أعيانهم، أى أنه سيكون سهل القياد يسهل صرفه أو التخلص منه إذا اقتضت الضرورة ذلك^(٣).

أيا كان الأمر فقد كان على هذا السلطان أن يواجه عقبات عدة في سبيل تدعيم أركان ملكه ومن أهمها:

(١) الذهبى: العبر فى خبر من غير جـ ٥ ٢٢٢، العينى: عقد الجمان جـ ١ ص ١٤١، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٤.

(٢) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٣٩، أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ١٨٣، ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الزهور جـ ١ ص ٢٨٧ وهو يذكر أن القاضى الشافعى تاج الدين ابن بنت الأعز هو الذى عقد قرانهما.

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٥، عبد الله جمال الدين: من تاريخ الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ص ٢٣.

١- تهديد الأيوبيين فى الشام لمصر

فقد أدرك أيبك أن اعتراض الأيوبيين فى الشام على سلطنة شجرة الدر فى مصر، ورفضهم الاعتراف بها، لم يرجع لكونها امرأة فحسب، وإنما لأنهم يطمعون فى امتلاك مصر - أيا كان من يحكمها - وضمها إلى أملاكهم، وعلى هذا فإن تنازل شجرة الدر عن الحكم لم يكن ليثنى عزمهم عن المضى قدما صوب مصر التى طمعوا فيها حتى فى أثناء حياة الصالح نجم الدين أيوب نفسه.

ومن ثم فكر السلطان أيبك فى وسيلة قد تفلح فى تعطيلهم أو تضعف من تصميمهم إلى حين، ففضل الموافقة على رأى أمراء المماليك فى تعيين الأشرف موسى بن الملك مسعود بن الملك الكامل الأيوبي - وكان آنذاك فى السادسة من عمره - سلطانا مشاركا له فى الحكم، فتم ذلك فى الثالث من جمادى الأولى سنة ٦٤٨هـ، الثالث من سبتمبر سنة ١٢٥٠م^(١) أى بعد خمسة أيام فقط من ولاية أيبك منفردا.

وهكذا أصبح لمصر سلطانان أحدهما مملوكى والآخر أيوبى، وضربت السكة باسمهما معا، وكذلك خطب لهما على المنابر معا غير أن الملك الأيوبي الصغير لم يكن له من الأمر شىء، فقد آلت الأمور كلها إلى يد أيبك^(٢).

ويبدو أن أيبك كان يظن فعلا أن فى هذا الإجراء تهديّة لنفوس الأيوبيين الغاضبين فى الشام من ناحية أخرى، وتخفيفا لوطأة الطامعين فى عرش مصر من كبار أمراء المماليك، وكانت أبعاد الرؤية عند أمراء المماليك مختلفة تماما عنها عند أيبك، فهم لم يشعروا حتى الآن بمدى انتمائه إليهم، ومن ثمة فقد جاء اقتراحهم بتعيين

(١) ابن أيبك الدوادارى: كنز الدرر وجامع الغرر جـ ٨ ص ١٣، ابن الوردي: تنمة المختصر جـ ٢

ص ٢١٧، السيوطى: حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٣٧.

(٢) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٣٩، ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ ٢ ص ٤٧، ابن إياس: بدائع

الزهور جـ ١ ص ٢٨٩.

الأميرف موسى الأيوبي - وهو لم يزل بعد صبيا - فى منصب السلطان المشارك لأبيك راجعا لاعتبارات مهمة منها:

أ- التتغيص على أيبك وإحراجه، وإشعاره أنه ذو سلطة ناقصة.

ب- إخفاء مصالحهم فى الوصول إلى سدة الحكم.

ج- التحضير لفرصة الانتقضاى على السلطة فى الوقت المناسب.

وسرعان ما أقدم الملك الناصر الأيوبي صاحب الشام على مهاجمة مصر، فتأجل الصراع المحتوم بين السلطان أيبك والمماليك الذين تتاسوا آنذاك خلافاتهم مع السلطان، وخرجوا لمقاتلة العدو المشترك، ونجحوا فعلا - بعد مشقة - فى إلحاق الهزيمة بالجيش الأيوبي عند العباسة بالشرقية فى العاشر من ذى القعدة سنة ٦٤٨هـ/ الثالث من فبراير سنة ١٢٥١م^(١).

ولم يكتف أيبك بهذا النصر الكبير، إذ سارع إلى الاستيلاء على غزة بجيش يقوده فارس الدين أقطاي كبير المماليك البحرية مما جعل نشوب الصراع بين الطرفين مرة أخرى أمرا وشيكا.

٢- تمركات الملك لويس التاسع

أدى استقرار لويس التاسع فى عكا بعد إطلاق سراحه من مصر إلى تعلق أمل الفوى الصليبية فى سواحل الشام به، وغدا وجوده يشكل قوة يمكن أن تؤثر بصورة أو أخرى فى ميزان الصراع الدائر بين الأيوبيين والمماليك.

وقد رأى الملك الناصر الأيوبي قبل القيام بمحاولته فى الاستيلاء على مصر أن يرسل إلى الملك الصليبي لويس طالبا منه التحالف معه ضد المماليك فى مصر على أنه يسلمه نظير ذلك بيت المقدس^(٢).

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ١٨٦، ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٤٠، النويرى: نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٤٢٠ - ص ٤٢١.

(٢) المقرئى: السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٢٧، ستيغن رنسيماى: تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٤٧٥.

أما لويس فقد رأى أنه من السياسة ألا يعطيه ردا حاسما على مطالبه خاصة أنه مازال في مصر عدد كبير من الأسرى الصليبيين الذين لم يطلق سراحهم بعد، فقد كان يخشى أنه إذا اتفق مع الناصر ضد المماليك أن ينتقم هؤلاء من الأسرى الصليبيين، لذا اتخذ من الناصر موقف الحياد في الوقت الذي أخذ يهدد فيه المماليك بقبول التحالف مع أعدائهم بالشام، لعله يفك بذلك الصليبيين الذين كانوا لا يزالون في أسرهم^(١).

وكان أيبك قد علم من قبل بأنباء المفاوضات التي دارت بين الطرفين فأرسل إلى لويس تهديدا بقتل أسرى الصليبيين المقيمين بمصر إن هو قام بأى عمل عدائى ضده، وفى الوقت نفسه أبدى له استعدادا لتعديل معاهدة دمياط، والتنازل له عن نصف القدية المفروضة إن تحالف معه ضد الناصر الأيوبي غير أن الملك لويس فضل أن يثق على المراد وأن يستغل نزاعهما لصالحه^(٢).

ولما كان المماليك يخشون فعلا سريان التحالف بين الملك الناصر الأيوبي والملك الصليبي لويس، فقد رأوا أن يجيبوا لويس إلى مطالبه حتى لا يحملوه على مناصرة عدوهم، وعلى هذا فقد أخلى المصريون في جمادى الثانية سنة ٦٤٨هـ/سبتمبر ١٢٥٠م سبيل عدد كبير من الأسرى الفرنج من بينهم رئيس الاسبتارية غليوم دى شانتون، فوصلوا إلى عكا في رجب سنة ٦٤٨هـ/أكتوبر سنة ١٢٥٠^(٣).

ولعل السلطان أيبك قد أدرك - بعد فوات الأوان - قيمة النصيحة الغالية التي أسداها الأمير حسام الدين أبو على الهذبانى كبير المفاوضين المصريين عندما أشار

(١) ستيفن رتسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٤٧٥، جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر ص ٢٧٤.

(٢) أحمد العبادى: فى التاريخ الأيوبي والمملوكى ص ١٢١ - ص ١٢٢.

(٣) جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر ص ٢٧٤ - ص ٢٧٥.

إلى أميرة النصارى من الملك لويس قبول إطلاق سراحه - بعد أن عادت دمياط إلى مصر - لأنه من ألد الأعداء، وقد اطلع على دخل الأمور في الدولة^(١).

لم يعد يوسع الملك المعز الآن سوى أن يأخذ جانب الحذر التام في علاقته مع المسلمين القاطنين في ممسا مذبذباً لما قد تسفر عنه الأحداث في الصراع بين المماليك والأوروبيين، ولهذا فقد أمر المعز بهدم تحصينات مدينة دمياط وتخريبها حتى لا يتخذها المسلمون - مرة أخرى - قاعدة ينفذون منها إلى داخل البلاد، فجري تنفيذ ذلك في الخامس عشر من شعبان سنة ٦٤٨هـ / الخامس والعشرين من نوفمبر سنة ١٢٥٠م^(٢).

وبالطبع كشفت هذه الخطوة عن مدى تخوف المماليك من هجوم صليبي وشيك قد يقوم به الملك لويس التاسع على مصر ليسترد سمعته التي لحقها العار منذ بضعة شهور هناك، وبخاصة أنه قد استفاد الآن من أخطائه في الحملة السابقة فلم يعد جاهلاً بمخاطر قوة البلاد ولا بأحوالها السياسية والعسكرية، ولعله يستطيع تعويض النقص الذي أصرت جيشه بإمدادات صليبية جديدة وبمساعدة فعالة من الملك الناصر الأيوبي الذي تخاض مؤثراً من جهة المماليك في مصر كثيراً.

وينبش أن تخوف المماليك من التحالف بين الملكين لويس والناصر قد استمر مسوّطاً عليهم فعلى الرغم من تمكنهم من إلحاق الهزيمة بجيش الملك الناصر في مصر في ذي القعدة سنة ٦٤٨هـ - كما سبق القول إلا أنهم ظلوا يحشون مغية التحالف بينه وبين الملك الصليبي، ولهذا سارعوا إلى اتخاذ خطوة خطيرة في التحالف مع الملك لويس إذ عرضوا عليه أن يسلموا بيت المقدس مقابل مناصبه لهم ووقوفه

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٨ ص ٣٦٩، ابن الصمد الحنبلي: شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٤.

(٢) ابن أبيك الشوادري: كنز الثمر وجامع الغرر ج ٥ ص ١٥، المقريزي: السلف ج ١ ص ٣٨٢، ابن سياطة: صنق الأختار ج ١ ص ٣٥٧.

إلى جانبهم فى نزاعهم ضد الأيوبيين فى الشام، ومن ثمة فقد عقدت هدنة بين الطرفين مدتها خمسة عشر عاما تبدأ من أواخر المحرم سنة ٦٥٠هـ/مارس سنة ١٢٥٢م، كذلك تم الاتفاق على أن يتوجه الفرنج إلى يافا والمماليك إلى غزة فى ربيع الأول سنة ٦٥٠هـ/مايو سنة ١٢٥٢م ليردوا إلى الصليبيين بيت المقدس التى كانت آنذاك تحت حكم الناصر الأيوبي، وقد تعهد المماليك أيضا بإطلاق سراح باقى الأسرى المسيحيين الموجودين فى مصر، وأن يبعثوا إلى الملك لويس برؤوس الفرنج المعلقة على أسوار القاهرة^(١).

وترتب على ذلك كله أن أرسل الملك الناصر جيشا كبيرا إلى غزة للاستيلاء عليها، والوقوف دون إتمام التحالف الجديد^(٢) بين المماليك والصليبيين، ومن ثم فقد توقف المشروع بينهما إلى حين، غير أن الملك لويس استفاد من هذا الموقف أيضا، فقد نفذ المماليك ما تم الاتفاق عليه بشأن إطلاق الأسرى الصليبيين، وإعادة الرؤوس المعلقة، كما أتيح له احتلال مدينة يافا دون مقاومة تذكر، والقيام بعمارة استحكامات عكا وحيفا وقيسارية^(٣).

وهكذا تجدد الصراع بين المماليك والأيوبيين حتى قدم إلى الملك الناصر الأيوبي فى دمشق فى صفر سنة ٦٥١هـ/إبريل سنة ١٢٥٣م الشيخ نجم الدين البادرانى رسول الخليفة العباسى المستعصم بالله ساعيا فى تصفية الخلاف بين

(١) ستيفن رنسيمن: تاريخ الحروب الصليبية ج٣ ص ٤٧٦، جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

(٢) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٤٢، ابن الوردي: تنمة المختصر ج٢ ص ١٨٨، ابن سباط: صدق الأخبار ج١ ص ٣٦١.

(٣) ستيفن رنسيمن: تاريخ الحروب الصليبية ج٣ ص ٤٧٧، جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

وقد تم الاتفاق على أن يكون للمماليك مصر وغزة وبيت المقدس وللأيوبيين ما يلي ذلك من عند نهر الأردن إلى أقصى شمالى الشام^(٢).

ويظهر من هذا الاتفاق المهم الذى قبله الطرفان أن الملك الناصر الأيوبى قد استجار بالخليفة العباسى لينقذه من تقاوم اثر التحالف الخطير بين المماليك والصليبيين^(٣) كما يظهر أيضا أن استجابة الخليفة جاءت مترتبة على ما أعلنه الملك الممولى فى القاهرة من أن البلاد للخليفة العباسى المستعصم بالله، وأنه نائبه عنها^(٤).

أما الخليفة فكان يهدف من وراء ذلك إلى وقف التغلغل الصليبي بين المسلمين فى الشام من ناحية، وتوحيد جهود المسلمين فى مواجهة الزحف المغولى القادم من الشرق صوب بغداد وما يتلوها من بلاد الشام ومصر من ناحية أخرى.

على أية حال فقد ترتب على نجاح الوفاق السابق نتائج عدة مهمة منها:

أ- اعتراف الأيوبيين بشرعية حكم المماليك فى مصر وجنوبى الشام.

ب- فشل لويس التاسع فى إثارة الفتنة بين الطرفين المسلمين الأيوبيين والمماليك، وفوات غرضه بإضعافهما معا لصالح الصليبيين وحدهم^(٥) وقد

ساعد ذلك الفشل على التعجيل بسفره عائدا إلى فرنسا فى ٤ ربيع الأول

(١) الذهبى: العبر فى خبر من غير جـ ٥ ص ٢١٧، السبكى: طبقات الشافعية جـ ٥ ص ١١٣، العيني: عقد الجمان جـ ١ ص ٨٠.

(٢) أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ١٩١، النويرى: نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ٤٢٩، ابن سباط: صدق الأخبار جـ ١ ص ٣٦٦.

(٣) ستيفن رنسيمن: تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٤٧٧.

(٤) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ق ٢ ص ٣٧٠.

(٥) جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر ص ٢٧٩.

سنة ٦٥٢هـ/ ٢٤ أبريل سنة ١٢٥٤م.

ج- تفرغ المعز أيبك لمواجهة مشاكله الداخلية في مصر التي ظلت تؤرقه منذ توليه منصب السلطنة في مصر.

٣- ثورة العربان

أدى نجاح الفتح العربى لمصر على يد عمرو بن العاص إلى هجرة كثير من القبائل العربية من شبه جزيرة العرب إليها، وقد فضلت غالبية هذه القبائل العيش على أطراف الصحراء المتاخمة للأراضى الزراعية فى مناطق الشرقية والبحيرة والفيوم والصعيد، إلا أنها مع مرور الوقت شرعت فى امتهان الزراعة إلى جوار الرعى، كما حافظت على أداء دورها العسكرى فبرزت أهمية أبنائها كفرق متطوعة تشارك الجيش النظامى فى الدفاع عن البلاد ضد أعدائها والمغيرين عليها.

غير أن هذا الدور كان يتحول أحياناً إلى النقيض وبخاصة فى فترات ضعف الحكومة المركزية أو انشغالها عنهم، فلما كانت بداية العصر المملوكى، واشتغال الملك المعز بحرب الملك الناصر وتجريد الجيوش إلى جبهته - وعدم الالتفات إلى غير ذلك - تمكن العربان بهذه الأسباب من البلاد، وكثر شرهم، وزاد طغيانهم وبغيهم، وحصل لأهل البلاد منهم من أنواع الأذى ونهب الأموال والتعرض إلى الحریم، وأمثال ذلك، ما لا حصل من الفرنج أكثر منه^(١).

ولم يكن هؤلاء العربان يرون فى الممالیک أو حتى الأيوبيين الذين سبقوهم استحقاقاً لملك مصر ولهذا عمدوا إلى توحيد جماعاتهم تحت زعامة أحد شيوخها ويدعى حصن الدين بن ثعلب وكان ينتسب إلى نسل الإمام على بن أبى طالب، ويؤى أنه أحق بالملك من الملك المعز فقد أثر عنه قوله: "أنا أحق بالملك من الممالیک وقد

(١) التبرى: نهاية الأرب ج ٢ ص ٤٢٧.

كفى أنا خدمنا بنى أيوب وهم خوارج خرجوا عن البلاد^(١).

ولم يكتف حصن الدين بن ثعلب بالسيطرة على الصعيد، وإنما زحف على الوجه البحرى ليستثير قبائل العربان هناك ضد سلطنة المماليك، وأخذ يتصل بالملك الناصر الأيوبي فى الشام يطلب مساعدته فى حربه ضد الملك المعز أيبك^(٢) غير أن الملك الناصر كان قد قبل الصلح مع الملك المعز بوساطة سفير الخليفة العباسى - كما سبق القول - فلم يعد بمقدوره فعل أى شىء.

وقد سارع الملك المعز فى مواجهة تفاقم خطر العربان إلى الاستعانة بالمماليك البحرية وزعيمهم أقطاى، الذى نجح فى القضاء على مركز الثورة فى أخميم وتابع مطاردته للعربان فى الصعيد ثم عاد إلى القاهرة بعد أن نهب أموالهم وأسر بعضهم وكان ضمن الأسرى ابن عم حصن بن ثعلب فشنت تحت القلعة^(٣).

وفى سنة ٦٥٣هـ/سنة ١٢٥٥م تجدد عصيان حصن بن ثعلب ببلاد الصعيد، ووافقه على رأيه الأمير عز الدين الأفرم، وهو إذ ذاك والى قوص وأعمالها، فتحيل المعز على حصن بن ثعلب حتى أنه أحضره واعتقله بالأسكندرية^(٤).

٤- تمرد المماليك البحرية

وأولئك كانوا يتحينون الفرص لإزاحة الملك المعز أيبك وإقصائه عن السلطة - كما سبق القول - لكنهم أجلوا ذلك انتظارا لما تسفر عنه المواجهة مع الملك الأيوبي. ولما كان الملك المعز مدركا لحقيقة مواقفهم فقد قرر أن تكون المواجهة معهم

(١) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ٢ ص ٢٨٦.

(٢) أحمد العبادى: فى التاريخ الأيوبي والمملوكى ص ١٢٦، سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر الممالكى فى مصر والشام ص ٣٢٤.

(٣) ابن قزواغلى: مرآة الزمان ج ٨ ق ٢ ص ٧٩١، النويرى: نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٤٢٩.

(٤) بيبرس المنصورى: التحفة المملوكية فى الدولة التركية ص ٣٧، محمد جمال الدين سرور: دولة الظاهر بيبرس ص ٢٢.

خطوة خطوة ولهذا شرع فى اتخاذ عدة إجراءات تدريجية ضدهم منها:

أ- إنشاء فرقة جديدة من المماليك أسماهم المماليك المعزية نسبة إليه، كذلك اختار مملوكه سيف الدين قطز نائباً للسلطنة^(١).

ب- إلقاء القبض على أمراء المماليك المعروفين بميولهم إلى الأيوبيين وسجنهم^(٢).

ج- إخراج المماليك البحرية من ثكناتهم بالروضة^(٣).

د- تكليف المماليك البحرية بالمشاركة فى المواجهات العسكرية الخطيرة مثل

حرب الأيوبيين فى الشام، ومطاردة العربان فى الوجه البحرى والقبلى.

ولم تؤد هذه الإجراءات - مع مرور الوقت - إلى إحراج موقف المماليك

البحرية وزعيمهم فارس الدين أقطاي الذى ازداد غروراً بنجاحه فى تقليص أظافر العربان فاتخذ برعونة عدة إجراءات مضادة منها:

أ- تسلطه على شئون الدولة، وتدخله فى أدق أمور إدارتها وبخاصة النواحي المالية منها.

ب- اختصاص نفسه بحرس خاص، وموكب كبير حتى إن أتباعه أطلقوا عليه لفظ الملك الجواد.

ج- إظهار احتقاره للسلطان المعز، فصار لا يسميه فى مجالسه إلا أيبكاً^(٤).

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين ج ٢ ص ٥٣، العيني: عقد الجمان ج ١ ص ٧٩.

(٢) المقرئى: السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٧٠.

(٣) أحمد العبادى: فى التاريخ الأيوبى والمملوكى ص ١٢٨.

(٤) النويرى: نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٤٢٠، الذهبى: العبر ج ٥ ص ٢١١، العيني: عقد الجمان ج ١ ص ٨٠.

وإمعانا فى إظهار مدى ضعف المعز، وقلة حيلته فقد أخذ أقطاى وأتباعه فى مضايقة العامة فى القاهرة حتى ضج الناس بالشكوى من تعدى المماليك البحرية على أموالهم وبيوتهم وحريمهم وأولادهم^(١).

وحاول السلطان المعز أيبك تغاى الصدام بأقطاى، وما يرتكبه أعوانه، فأقطعته نجر الإسكندرية، لعله ينشغل به عن غيره مما يمنى به نفسه^(٢).

غير أن أقطاى عاد ليفاجئه بما لم يكن يتوقعه، فأعلمه بأنه ينوى الزواج بابنة صاحب حماة الأيوبي ولذلك ينبغي إخلاء قلعة الجبل - وكانت آنذاك مقر الحكم - لتقيم فيها الأميرة الأيوبية^(٣) وكانت قد انتقلت من حماة فى طريقها إلى دمشق وفيهم أيبك الأبعاد الحقيقة الكامنة فى نفس أقطاى فشرع فى التخطيط لاغتياله، وتم له ما أراد فى داخل القلعة، إذ لما استدعى أقطاى إلى القلعة توجه إليها دون احتياط فما أن ولج إلى داخلها حتى هاجمه المماليك المعزية بقيادة قطز فقتلوه بسيوفهم فى الثالث من شعبان سنة ٦٥٢هـ/التاسع والعشرين من سبتمبر سنة ١٢٥٤م^(٤) وبمقتل أقطاى لم يعد أمام أتباعه من المماليك البحرية سوى الفرار إلى الشام أو بلاد سلاجقة الروم، فكتب الملك المعز أيبك إلى الملك الناصر الأيوبي، وإلى السلطان علاء الدين السلجوقي يحذرهم من استخدام المماليك البحرية^(٥).

ولم يكتف المعز بذلك، فقد عمد إلى مصادرة أموال المماليك البحرية وأسر من

-
- (١) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ١٨٨، ابن دقماق: الجواهر الثمين ج ٢ ص ٤٨.
 - (٢) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٤٢، بيبرس المنصورى: التحفة الملوكية ص ٣٤.
 - (٣) ابن دقماق: الجواهر الثمين ج ٢ ص ٥٣، العيني: عقد الجمان ج ١ ص ٧٩.
 - (٤) أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ١٩٠، ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٣٧٥، ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ ص ٩١.
 - (٥) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٤٢، بيبرس المنصورى: التحفة الملوكية ص ٣٤-٣٥، النويرى: نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٤٣٢.

تبقى منهم ونفيه^(١) ثم قبض على الأشرف موسى الأيوبي وسجنه ثم نفاه إلى دمشق^(٢).
وهكذا تصدع نفوذ المماليك البحرية في مصر إلى حين، في الوقت الذي ارتفع فيه شأن المماليك المعزية والصالحية.

٥- شجرة الدر

كانت العلاقة قد ساءت بين الملك المعز وزوجته شجرة الدر التي تسلطت عليه بشكل ظاهر سواء فيما يتعلق بإدارة شئون الدولة^(٣) أو علاقتها الخاصة به، فقد ألزمته بهجر زوجته الأولى أم ابنه علي، ثم اعتراها الغضب الشديد لما علمت بنية الملك المعز في الزواج بابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل^(٤) فقررت أمورا غاية في الحرج منها:

- الاتصال بالملك الناصر الأيوبي، وإخباره بنيته في التخلص من الملك المعز، ثم الزواج به، وتمكينه من ملك مصر، فتخوف الناصر منها وحسب الأمر كله خدعة.

- الاتصال بالمماليك البحرية سواء الفارين منهم إلى الشام أو المقيمين منهم في مصر، وتحريضهم على التخلص من الملك المعز.

(١) العيني: عقد الجمان جـ ١ ص ٨٧، ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ ص ٩٢، وليم موبر: تاريخ دولة المماليك في مصر ص ٣٨.

(٢) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ١٩٠، ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٠، ابن شاهين الملطي: نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص ٧١.

(٣) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٤٣، النويري: نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ٤٥٧، ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٩٥.

(٤) ابن دقماق: الجواهر الثمين جـ ٢ ص ٥٥، العيني: عقد الجمان جـ ١ ص ١٤٢، ابن سباط: صدق الأخبار جـ ١ ص ٣٦٨.

- تدبير قتل الملك المعز في القلعة إذا أعيتها الحيل.

وأخيرا تمكنت شجرة الدر من اغتيال الملك المعز بواسطة خدامها الذين قتلوه في الحمام في الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ/العاشر من أبريل سنة ١٢٥٧ م^(١).

السلطان المنصور علي بن أبيبك ٦٥٥ : ٦٥٧ هـ ١٢٥٧ : ١٢٥٩ م

بذلت شجرة الدر محاولات عديدة للإفلات من الخطر الذي أحرق بها بعد إقدامها على قتل زوجها الملك أبيبك ومن ذلك أنها أرسلت إصبع المعز وخاتمه إلى الأمير عز الدين سنجر الحلبي الكبير، وطلبت منه أن يقوم بالأمر، فلم يجسر على ذلك^(٢) وتخوف من مغبة الأمر، وتركها تواجه مصيرها بما قدمت يداها.

ولما ذاع خبر قتل أبيبك احتدم الصراع بين طائفتين من المماليك، الصالحية الذين يحبون شجرة الدر ويحترمونها ويحاولون حمايتها لأنها زوجة أستاذهم الصالح نجم الدين أيوب، والمعزية الذين غضبوا لمقتل أستاذهم أبيبك على هذه الصورة البشعة^(٣) وأخيرا سيطر المماليك المعزية على الموقف فاتفقوا على اختيار الأمير علي بن الملك الصريح أبيبك ليكون سلطانا خلفا لأبيه في السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة ٦٥٥ هـ/الثالث عشر من أبريل سنة ١٢٥٧ م، كما تم اختيار الأمير سيف الدين قطز نائبا للسلطنة^(٤) ثم سلموا شجرة الدر إلى أم السلطان الجديد فأمرت جواربها بقتلها

(١) ابن أبيك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر ج ٨ ص ٣١، الذهبي: العبر ج ٥ ص ٢٢٢، ولهم موبد: تاريخ دولة المماليك في مصر ص ٣٨.

(٢) أبو الغداء: المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ١٩٢، العيني: عقد الجمان ج ١ ص ١٤١، ابن سباط: منق الأخبار ج ١ ص ٣٧١.

(٣) العيني: عقد الجمان ج ١ ص ١٤٣، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٧.

(٤) بيبس المنصوري: مختار الأخبار ص ١٠، أبو الغداء: المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ١٩٢، ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

بنفس الطريقة التي قُتل بها الملك المعز، فأنهال هؤلاء عليها ضرباً بالقباقيب حتى
لغظت أنفاسها في ربيع الآخر سنة ٦٥٥ هـ^(١).

ولم يرض المماليك الصالحية عن ذلك، واتفقوا على اختيار الأمير علم الدين
سنجر الحلبي أتابك العسكر ليكون سلطاناً، وحلفوا له، فنهض المعزية في مواجهتهم
بقيادة نائب السلطنة الأمير سيف الدين قطز، فقبضوا على علم الدين سنجر، وسجنوه،
وتمَّ تعيين الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب مكانه^(٢).

وفي الحقيقة لم يكن المنصور على صالحاً لتولى هذا المنصب الخطير في هذا
التوقيت الحرج، فقد كان صبيّاً مراهقاً في الخامسة عشرة من عمره، يضيق معظم وقته
في التلهي بركوب الحمير والطواف بها داخل أسوار القلعة، وفي اللعب بالحمام مع
الخدام^(٣).

أما المماليك البحرية الموجدون بالشام آنذاك فقد ساءت علاقتهم بالملك الناصر
الأيوبي بعد أن تيقنوا أنه لن يتوجه إلى الديار المصرية، أو يسير عسكره معهم إلى
هناك، فقرروا أن يسيروا هم إلى الملك المغيث صاحب الكرك ليحرضوه على قصد
مصر^(٤).

(١) ابن أبيك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر ج ٨ ص ٣٢ وهو يذكر أن وفاتها كانت في
السادس عشر من ربيع الآخر على حين يذكر ابن إياس في بدائع الزهور ج ١ ص ٢٩٥ أن
وفاتها كانت في الخامس والعشرين من نفس الشهر.

(٢) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٤٤، أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ١٩٢، ابن
تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٢-٤٣.

(٣) بيبرس المنصوري: مختار الأخبار ص ١٠، ابن أبيك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر ج ٨
ص ٢٣، النويري: نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٤٦٨.

(٤) ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص ٣٨٣، ابن تغري بردي: النجوم
الزاهرة ج ٧ ص ٤٥.

وكانت كوامن الحقد قد تحركت فى نفوس المماليك البحرية لما آلت السلطة الحقيقية فى مصر إلى يد الأمير سيف الدين قطز المعزى، فقد كانوا يكرهونه لاشتراكه فى قتل زعيمهم فارس الدين أقطاي، ولكونه من المماليك المعزية، ولارتقائه إلى منصب نائب السلطنة فى وقت أخذوا هم فيه يهيمنون على وجوههم فى الشام دون مأوى آمن، مترقبين غضب الملوك الأيوبيين فى الشام أو رضاهم.

أيا كان الأمر فقد أفلح المماليك البحرية فى تحريض صاحب الكرك، وأطمعوه فى انتزاع مصر لصالحه من أيدي قطز والمماليك المعزية، وساروا ضمن جيشه إلى هناك، فخرج إليهم المماليك المعزية، واشتبكوا معهم عند الصالحية فى الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٥٥هـ / الرابع من ديسمبر سنة ١٢٥٧م، فانهزم المماليك البحرية، ووقع بعضهم فى الأسر، وفر الباقون عائدين إلى الكرك^(١).

وفى العام التالى عاود المماليك البحرية كرتهم، وخرج معهم فى هذه المرة الملك المغيـث بنفسه، فالتقاهم قطز والمماليك المعزية عند الصالحية مرة ثانية فى الحادى والعشرين من ربيع الآخر سنة ٦٥٦هـ / السابع والعشرين من إبريل سنة ١٢٥٨م، فانهزم الملك المغيـث ونهبت أمواله وأُنقـاله وعاد إلى الكرك على أسوأ حال، على حين فر المماليك البحرية إلى ناحية الطور حيث اتحدوا هناك مع الأكراد الفارين من بطش المغول^(٢).

وقبيل تلك الأثناء بقليل كان المغول بقيادة هولاكو بن تولوى بن جنكيز خان قد نجحوا فى الاستيلاء على بغداد عاصمة الخلافة العباسية بعد مهاجمتها من الشرق

(١) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ١٩٣، الذهبى: العبر فى خبر من عبر ج ٥ ص ٢٢٠، ابن سبط: صدق الأخبار ج ١ ص ٣٧٢.

(٢) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ٢ ص ٤٠٤-٤٠٥، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٤ ص ٤٥، ابن إبراهيم الحنبلى: شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص ٢٨٣.

والغرب فى السابع من صفر سنة ٦٥٦هـ/الثالث عشر من فبراير سنة ١٢٥٨م، ثم قتلوا الخليفة المستعصم بالله فى الرابع عشر من صفر من نفس السنة وأغفوا قبره^(١).

ثم شرع المغول فى استكمال خطتهم التى رسمها الخاقان الأعظم منكوقاستولوا على أربل، وأطبقوا على بلاد الجزيرة ميفارقين، ماردين، نصيبين، ثم انحدروا - بعد عبور نهر الفرات - إلى الإغارة على منبج وتوجهوا إلى حلب، مثيرين أقصى حالات الذعر والهلع بين المسلمين فى تلك الأنحاء أما الملوك والأمراء فى تلك النواحي - وكان غالبيتهم من الأيوبيين - فقد شرعوا فى تقديم فروض الولاء والطاعة ليهولاكو وجيشه، بعد أن خارت عزائمهم وانهارت قدرتهم عن المقاومة.

فلما استشعر الأمير سيف الدين قطز خطورة الحال وحاجة البلاد إلى سلطان قوى حازم، عزل الملك الصبى المنصور على بن أيبك، واستوى مكانه على العرش يوم السبت ٢٨ ذى القعدة سنة ٦٥٧هـ/السابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٢٥٩م لعله يتمكن من دفع أذى المغول عن البلاد^(٢).

ولقد شكل هذا الموقف الصعب اختباراً حقيقياً لنشأة الدولة المملوكية الفتية بعد أن شاعت أنباء التحالف المزمع عقده بين المغول والصليبيين وعلى رأسهم البابا فى روما ضد المسلمين فى الأراضى المقدسة.

(١) ابن الفوطى: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة ص ٣٢٧، ابن الوردى: تنمة المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ١٩٧، الديار بكرى: تاريخ الخميس فى أحوال أنف نفيس ج ٢ ص ٣٧٦.

(٢) أبو شامة: الذيل على الروضين ص ٢٠٣، النويرى: نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٤٦٩، ابن سباط: صدق الأخبار ج ١ ص ٣٨١.

المبحث الثانى

المغول

يقسم علماء الأجناس البشرية السلالات الإنسانية إلى عناصر ثلاثة رئيسية هي القوقازى والزنجى والمغولى، وكان هذا الأخير منتشرا فى منغوليا والصين وكوريا وفى جنوبى شرق أسيا بعامة، وكان يعرف أيضا باسم السلالة الصفراء^(١).
وتمتد هضبة منغوليا التى عاش فيها المغول منذ زمن بعيد فى أواسط أسيا ما بين جنوبى سيبيريا وشمالى التبت وغربى منشوريا وشرقى تركستان^(٢) ويغلب على مناخها الصفة القارية فالمناخ هناك شديد القسوة يندر وجود نظير له فى منطقة أخرى فهو يبلغ النهايات العظمى فى الحرارة أو البرودة وفى جفافه الشديد، وكذلك فى قوة الرياح العاصفة^(٣).

وقد انعكس أثر هذه البيئة القاسية على حياة المغول وتكوينهم الجسمى والنفسى، فالمغولى يتصف بتكوين جسمانى خاص يميزه عن غيره من الأجناس فهو يتسم بالقامة القصيرة أو المتوسطة والرأس العريض والجبهة المرتفعة كذلك كان للسحنة المغولية سمات خاصة، فالوجه عريض والبشرة سميكة، والأنف أفطس غائر فى الوجه، وعظام الوجنات ناتئة، والعين منحرفة ذات جفن ثقيل، كما تميز المغول أيضا بالشفاه الغليظة والذقون الجرداء، والشعور الخشنة المسترسلة والسيقان القصيرة المعوجة والأجسام الممتلئة^(٤).

(١) دولت صادق: جغرافية العالم ص ٢٢.

(٢) جمال حمدان: أنماط من البيئات ص ٥٤، مصطفى بدر: محنة الإسلام الكبرى ص ٤٨.

(٣) يوسف فايد: جغرافية المناخ والنبات ص ٢٣٧.

(٤) D'ohsson: Histoire des mongols Tom. I P10.

(٤) محمد السيد غلاب: تطور الجنس البشرى ص ٢٩٧، فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٧، ص ٢٥.

وفى الجانب النفسى كان المغول صدى للطبيعة القاسية من حولهم فنشأوا مقاتلين بالفطرة فى مواجهة هذه الطبيعة والأعداء المتربصين وحيوانات الصيد التى كانت تشكل أحد المصادر الرئيسية للغذاء عندهم، وكذلك تحلى المغول بالصبر، ولم يقتصر ذلك على تحملهم ألم الجوع فى وقت الجفاف، إذ كانوا يتحملون أيضا البرد الشديد والحر اللافتح بعزيمة قوية^(١).

واشتهر المغول أيضا بالطاعة المطلقة لساداتهم وقوادهم فقد دأبوا على تعظيمهم واجتناب خيانتهم فى القول والعمل^(٢).

وعلى وجه العموم كان المغول يعتقدون فى أنفسهم التميز على سائر الأجناس، وربما قوى ذلك الاعتقاد لديهم كثرة انتصاراتهم، وتسابق الكثير من أبناء البلاد التى خضعت لهم إلى خدمتهم^(٣).

مما سبق يتضح أن العنصر المغولى عنصر متميز له نشأة خاصة فى أواسط آسيا^(٤) وبالتالي فهو لا يرتبط من ناحية الأصل بالأتراك الذين ينتمون إلى العنصر القوقازى ويختلفون فى كثير من صفاتهم الجسمية والنفسية عن المغول^(٥).

حقا كانت هناك عوامل كثيرة أدت إلى التشابه بين المغول والأتراك منها التجاور المكانى والاشتراك فى بعض التقاليد البدوية وبعض المعتقدات الوثنية وبعض

(1) Howorth: History of the mongols vol 4. P. 81-82.

(٢) هارولد لامب: جنكيز خان إمبراطور الناس كلهم ص ٢٨، إدوارد براون: تاريخ الأدب فى إيران ص ٥٣٣.

(٣) الكاتب الصينى ف.يان: جنكيز خان سفاك الشعوب ص ٩٦، هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٥١.

(٤) محمد عوض: سكان هذا الكوكب ص ٣٩.

(٥) محمد السيد غلاب: تطور الجنس البشرى ص ٢٥٣.

المفردات اللغوية^(١) غير أن ذلك كله لا يثبت أن المغول والأتراك عنصر واحد كما تصور بعض المؤرخين^(٢).

الأديان عند المغول:

لم يعرف المغول وهم شعب مغرق في البداوة - في بادئ الأمر - ديناً معيناً واضح المعالم، ويرجع ذلك إلى حياة العزلة التي عاشوها في هضبة منغولياً القارية التي لم يفكر كثير من دعاة الأديان آنذاك في اقتحام صحاريها، لما يحتويه ذلك من مخاطر جسيمة لا تؤمن عواقبها.

وأمام جبروت الطبيعة القاسية، وجفاف البيئة وفقرها التمس المغول قوة أكبر اعتقدوا أنها تحميهم من الأخطار المحدقة بهم أو تعود عليهم بالنفع في أجسامهم وعقولهم، أو قد ترعى أبناءهم وحيواناتهم^(٣) وعلى هذا فقد كان منهم من يسجدون للشمس عند طلوعها^(٤) ومنهم من يعظمون النجوم ويعبدونها^(٥) ومنهم من يعبدون النار^(٦) كما كان منهم من يعبدون أرواح أجدادهم لاعتقادهم أن لها سلطاناً عظيماً على

(١) بار تولا: تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١٦٣، فامبرى: تاريخ بخارى ص ١٦١، لويون: حضارة العرب ص ١٧٨.

(٢) النسوى: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٣٩، القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص ٥٨١، الرمزي: تليق الأخبار ج ١ ص ٢٦.

(٣) مصطفى بدر: محنة الإسلام الكبرى ص ٥٦.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ١٣٨، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج ٥ ص ٦٥.

(٥) القرمانى: أخبار الدول وأثار الأول في التاريخ ص ٢٨٣.

(٦) الديار بكرى: تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ج ٢ ص ٣٦٨، الكاتب الصينى ف. يان: جنكيز خان سفاك الشعوب ص ٨٦.

حياتهم وعلى حياة أعقابهم أيضاً^(١).

وقد أتاح هذا الاضطراب الدينى عند المغول الفرصة لتسلط الكهان والمشعوذين والسحرة من الشامان، فنتشروا خرافاتهم وأساطيرهم، وأمعنوا فى ذلك كثيراً حتى أصبحت لهم مكانة خطيرة فى نفوس العامة والحكام من المغول^(٢).

وفى الجانب الآخر أدى اتصال المغول بالصينيين فى الشرق، والأتراك الأويغور فى الجنوب إلى انتشار البوذية بينهم^(٣) فقد نشط الدعاة البوذيون لترويج مذهبهم مستغلين ضعف المعتقدات الشامانية من جهة وخلق الساحة من دين سماوى من جهة ثانية، وتشوق المغول ورغبتهم فى التعرف على الأمور الدينية من جهة ثالثة. وهكذا بدأ المغول ينتقلون من عبادة قوى الطبيعة إلى عبادة الأصنام البوذية التى صنعت فى الأصل كتذكارات لبوذا ثم عبدها البوذيون زلفى، ثم نقلوا فكرهم هذا إلى غيرهم، ومن أولئك المغول^(٤).

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ١٩١، إبراهيم العدوى: العرب والتتار ص ٢٧.

(٢) رالف لنتون: شجرة الحضارة ج ٢ ص ١٧٨، ادوارد بروى: تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٨١، والشامانية ديانة وثنية بدائية تقوم على أن العالم مؤلف من طبقات متعاقبة: المنطقة السماوية وهى مملكة النور ومقر النفوس الفاضلة، والعالم السفلى: وهو مقر الظلمات والأشرار، وتقوم بين الاثنين مساحة الأرض حيث يعيش بنو الإنسان، وتخضع السماء والأرض إلى كائن أعظم يقيم فى الطبقة العليا أو السماء المؤلهة، على حين تقيم عفاريت لا يحصى لهم عدد فى الأرض والمياه والجبال والينابيع، وهى أماكن مقدسة أحيطت بالإكرام منذ القدم، وتحتوى الشامانية على فكرة البعث والحساب، وبأن الناس سيسألون عما يفعلون ولكن بطريقة مختلفة، فالقاتل لا يخاف عقاب يوم القيامة بل يعتقد أن منزلته تزداد ارتفاعاً فى ذلك اليوم بازدياد عدد من قتلهم: انظر بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٨٦، ادوارد بروى: تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٨٠.

(٣) بارتولد: تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى ص ٥٤٢.

(٤) القرمانى: أخبار الدول وأثار الأول فى التاريخ ص ٢٨٣، محمد ماهر حمادة: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى ص ٦٥، وكان بوذا رجلاً حكيماً وفيلسوفاً متأملاً أدرك بفطنته وصفاء

وعن طريق قوافل التجارة التى انتشرت عبر الطرق التجارية من وإلى تركستان ثم إلى منغوليا أو الصين انتقلت إلى المغول أديان جديدة تختلف عن وثنية الشامانية وأصنام البوذية، فقد استطاع كل من المسيحية والإسلام أن ينفذ إلى المغول، على حين ظلت اليهودية على عزلتها فلم يلق المغول إليها بالاً^(١)؛ لأنها لا تتناسب بينتهم ولا تكوينهم النفسى، كذلك أسفرت حركة الغزو المغولى منذ أيام جنكيزخان وخليفته أوكتاى والتى تتابعت شرقاً وغرباً فشملت الصين وتركستان وهضبة إيران فى آسيا، وامتدت إلى جنوبى روسيا، والمجر وبولندا فى أوربا. عن تعميق اتصال المغول بالأديان الثلاثة: البوذية والمسيحية والإسلام حيث كانت الشعوب التى اختلطوا بها هناك تضم أهل الديانات الثلاث^(٢).

وعلى الرغم من افتقار هذه الأديان إلى قوة عسكرية تحميها فى مواجهة المغول العناية إلا أنها نهضت لتكشف عن جوهرها فى الدعوة معتمدة على وسائلها الخاصة، ومن هنا نشب الصراع فيما بينها على احتواء المغول، وهذا هو ما عبر عنه أحد كبار المستشرقين حين قال: "وليس هناك فى تاريخ العالم نظير لذلك المشهد الغريب وتلك المعركة الحامية التى قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام، فكل ديانة تتنافس الأخرى لتكسب قلوب أولئك الفاتحين القساة الذين داسوا بأقدامهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين فى جميع الأقطار والأقاليم"^(٣).

ذهنه ماهية الخلق، وقدرة الخالق الواحد، فبنى دعوته إلى الناس على هذا الإدراك، ودعاهم إلى التزام الخير واجتناب الشر، وحث أتباعه على قهر الغرائز ونبذ الشهوات فلم يكن بوذا يزعم الألوهية لنفسه أو ليدعى النبوة، غير أن أتباعه ومريديه قد زعموه - بعد وفاته - إلهاً واتخذوا من أفكاره وأنماط سلوكه آيات لتأكيد هذا الزعم.

- (١) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ٦٤.
- (٢) أنور الجندى: الموسوعة الإسلامية العربية ج ٥ ص ٢٢٣.
- (٣) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ١٩٠.

ويستطرد المستشرق البريطاني قائلاً ولم يكن هناك بد من أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته الأولى، وأطلال مجده التالد، فاستطاع بواسطة دعائه أن يجذب هؤلاء الفاتحين المتبربرين، ويحملهم على اعتناقه، ويرجع الفضل في ذلك إلى نشاط الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعاب أشدها لمناهضة منافسين قويين (يعنى البوذية والمسيحية) كانا يحاولان إحراز قصب السبق في ذلك المضممار^(١).
هذا ولم تغفل الياسا الناحية الدينية عند المغول فقد تضمنت الإشارة إلى بعض القضايا الدينية ومنها:

أ- الاعتقاد بوجود إله واحد قاهر، يهب الملك لمن يشاء، ويسلبه ممن يشاء، وهو قوى جبار حسب معتقدهم الوثني^(٢).

ب- تعظيم جميع الملل والأديان من غير تعصب لملة أو أخرى^(٣).

ج- تعظيم رجال الدين على اختلاف دياناتهم بإعفاثهم من أداء الواجبات الحكومية التي تُفرض على غيرهم^(٤) ومن الضرائب المختلفة^(٥) وقبول وساطتهم أحياناً في أثناء عمليات الحصار أو الغزو^(٦).

(١) المصدر السابق: نفس الصفحة.

(٢) جعفر خصبالك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين ص ١٨٧، عبد السلام فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران ص ٣٤.

(٣) القلقشندی: صبح الأعشى ج ٤ ص ١، المقریزی: الخطط ج ٢ ص ٢٢٠، السيد العرينی: المغول ص ٦٣.

(٤) محمد موسى هندأوی: سعد شیرازی ص ٩٤، عبد السلام فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران ص ٣٤.

(٥) براون: تاريخ الأدب في إيران ص ٥٦١، بارتولد: تركستان من الفتح إلى الغزو المغولي ص ٣٣٣.

(٦) عطا ملك الجوينی: تاريخ جهانكشای ج ١ ص ١٢٨.

الشرق الإسلامي والمغول

كانت إيران عندما تحركت جحافل جنكيز خان سنة ٦١٦هـ/سنة ١٢١٩م داخلية ضمن ممتلكات السلطان الخوارزمي علاء الدين (٥٩٦-٦١٧)هـ وعقب الانتصارات المتلاحقة التي أحرزها المغول، وسقوط كبرى المدن الإسلامية في بلاد ما وراء النهر: أترار، بخارى، سمرقند عبرت قوات جنكيز خان نهر جيحون متجهة نحو خراسان^(١) للإجهاز على الجزء الغربي من الدولة الخوارزمية وفتح جبهة جديدة للغزو والسلب.

ولم يتمكن السلطان جلال الدين منكبرتي الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه علاء الدين سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م من الصمود أمام المغول طويلاً فعلى الرغم من أنه كان قد انتصر عليهم في سهل بيروان بالقرب من مدينة غزنة سنة ٦١٨هـ/سنة ١٢٢١م^(٢) إلا أنه اضطر - نتيجة لاختلاف قواده وتنازعهم على توزيع الغنائم - إلى التقهقر إلى شط نهر السند سنة ٦١٨هـ سنة ١٢٢١م حيث فرّ من هناك إلى بلاد الهند^(٣).

ولما أصبحت الساحة خالية ممن يدافع عنها، فقد توالى سقوط المدن الإيرانية الواحدة تلو الأخرى في أيدي المغول الذين أشاعوا من الرعب والهول ما لا مزيد عليه، فاضطربت شئون الرعية أشد الاضطراب^(٤).

-
- (١) عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٣٦٦، السيد العريني: المغول ص ١٣٢.
(٢) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ١٥٤-١٥٥، بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ص ٦٢٢.
(٣) حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ص ١٥٨، السيد العريني: المغول ص ١٣٥.
(٤) عطا ملك الجويني: تاريخ جهانكشاي - ١ ص ١٣٨ ص ١٣٩ ص ١٤٦ ص ١٧١، مصطفى بدر: محنة الإسلام الكبرى ص ٨١-٨٢.

وعندما اعتلى أوكتاي بن جنكيز خان عرش المغول سنة ٦٢٦هـ/سنة ١٢٢٩م كلف القائد المغولي جور ماغون بالقضاء على السلطان الخوارزمي جلال الدين ونو طيد سلطة المغول على إيران وما حولها^(١) فبادر القائد المغولي إلى إنجاز مهمته مستغلاً حالة الضعف التي اعترت السلطان الخوارزمي جلال الدين الذي لم يستفد من الدرس السابق فدخل في صراع مرير مع جيرانه المسلمين حتى لقي جيشه هزيمة منكرة أمام جيش الأشرف الأيوبي وسلاجقة الروم^(٢) فأنتهى الأمر إلى فراره ثانية أمام المغول حيث قُتل في جبال الأكراد سنة ٦٢٨هـ/سنة ١٢٣١م^(٣).

قلاع الإسماعيلية في إيران

لم يبق أمام المغول لابتلاع الشرق الإسلامي سوى قلاع الإسماعيلية في قوهستان وآلموت، والخلافة العباسية في بغداد، وكلا القوتين لم يكن يملك من مقومات الصمود في وجه المغول شيئاً ذا أهمية، فأما الإسماعيلية الذين كانوا يكتنون العداء لأهل السنة والجماعة الذين كانوا يشكلون غالبية المسلمين في الشرق الإسلامي - آنذاك - فقد بادر زعيمهم الحسن الثالث (ت/٦١٨هـ) إلى الاتصال سراً بجنكيز خان لإظهار العبودية وقبول الخضوع عندما توجه من تركستان قاصداً محاربة السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه في سنة ٦١٦هـ في الوقت الذي كان يتظاهر هو فيه بمحاربة الخوارزميين من جهة، والخليفة العباسي الناصر لدين الله (ت/٦٢٢هـ) من جهة أخرى^(٤).

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيز خان) ص ٣٢، عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٤٠٤.

(٢) ابن البيبي: تاريخ سلاجقة الروم ص ٢٢١، السيد العريني: المغول ص ١٧٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٢١٧، النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٣٨٢.

(٤) أحمد الساداتي: تاريخ الدولة الإسلامية بآسيا وحضارتها ص ١٤٧، محمد السعيد جمال الدين: دولة الإسماعيلية في إيران ص ٢٣٠.

D'ohsson: Histoire des mongols tom 3. P. 174.

وفي سنة ٦٢٨هـ / سنة ١٢٣١م استغل الإسماعيلية فرصة الضعف الذي أصاب جيش السلطان الخوارزمي جلال الدين فراسلوا المغول حتى ينهضوا للقضاء على هذا السلطان الممسم أو الممد الأخير في غربي إيران^(١).

وقد بدأت مناعب الإسماعيلية مع المغول سنة ٦٣٦هـ عندما أقدم بعض هذاؤهم على اغتيال قائد مغولي كبير يدعى (كابلاد) في أثناء نزوله ضيفاً على حاكم بخاري^(٢) كما اغتالوا أيضاً جغتاي القورجي الكبير، وهو مغولي ينسب إلى قوم (أولات) من أقارب القائد المغولي (يوزرجين) نوبين^(٣).

وقد تركت هاتان الحادثتان أثراً سيئاً في نفوس المغول وبخاصة قادتهم إذ إن هذا الاجترار على القادة المغول بهذه الصورة السافرة، إنما يقوض حالة الرعب والبلع التي عول المغول على نشرها بين خصومهم، والتي كانت سلاحاً لا يقل أهمية عند المغول عن المعارك الحربية ذاتها، كذلك اعتبر هذا الاجترار تحريضاً للآخرين من الذين عانوا محنة الغزو المدمر كي يقوموا بنفس العمل انتقاماً لما أصابهم على أيدي المغول.

ولم يجد الإسماعيلية مناصاً في مواجهة هذا التحول من ضرورة الاستعانة بقوى كبيرة، فأرسلوا في نفس السنة من الموت رسولين إلى ملكي إنجلترا وفرنسا يسألونهما العون على المغول، ويستشهدون بما يجري من دمار على أيدي المغول في أوروبا الشرقية^(٤).

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ١٢ ص ٤٩٦، السبكي: طبقات الشافعية جـ ١ ص ٣٤١، ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٥٢٤.

(٢) القزويني: أثار البلاد وأخبار العباد ص ٣٠٢، عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٤٢٨.

(٣) رشيد الدين: تاريخ جنكيزخان ورقة ١٤٥ (مخطوط).

(٤) ابري: تراث فارس ص ٤٣٥، ستيفن رنسيمن: تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٤٣٧، أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية جـ ٧ ص ٧٥١.

ولما تولى منكوخان حفيد جنكيزخان عرش المغول سنة ٦٤٨هـ سنة ١٢٥٠م شرع فى التفكير فى إنفاذ حملة كبيرة تجاه الغرب لإزالة قلاع الإسماعيلية، وتبديد شملهم، فكلف أخاه هولأكو بقيادة هذه الحملة التى خرجت من قراقورم فى سنة ٦٥٠هـ^(١).

ويمكن إيجاز أهم الدوافع التى تطلبت غزو المغول لقلاع الإسماعيلية فى:
أ- شكوى القائد المغولى بايجو الذى أرسله منكوخان على رأس جيش جرار للمحافظة على إيران وما حولها، فلما بلغ مكانه أرسل يشكو إليه الإسماعيلية وخليفة بغداد^(٢).

ب- شكوى أهل السنة فى قزوين، وكانوا أقرب أهل السنة مجاورة لهم من تسلط الإسماعيلية عليهم، وقد نقل هذه الشكوى إلى منكوخان القاضى شمس الدين أحمد الكافى القزوينى الذى ذهب إلى منكو وطلب منه أن يضع حداً لشركهم، وأن يخلص الناس من فسادهم^(٣).

ج- تأمين خطوط مواصلات الجيوش المغولية إذ إن موقع قلاع الإسماعيلية سواء فى قوهستان أو الموت وما حولها كان يشكل تهديداً خطيراً فى ظهر القوات المغولية المتجهة غرباً^(٤).

د- ما ارتكبه الإسماعيلية من أخطاء فادحة، منها اغتيال بعض قواد المغول، والاتصال بملوك غربى أوربا طلباً لعونهم ضد المغول كما سبق القول.

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيز خان) ص ٢٢٠، عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٤٢١.

(٢) البناكتى: روضة أولى الألباب ص ٤١٣، برنارد لويس: الحشاشون ص ١٦٦.

(٣) الجوزجاني: طبقات ناصرى ص ٤١٣-٤١٤، وانظر أيضاً:

Boyle: History of Iran vol 5. P. 480.

(4) Schneider: Mediaeval Ressearches vol I. P. 112.

وقد تمكن هولاء من تدمير قلاع الإسماعيلية سنة ٦٥٤هـ، وقتل إمامهم
ركن الدين خورشاه، وإحراق مكتبتهم الشهيرة في الموت، وتوجه بقواته إلى مدينة
همدان في سنة ٦٥٥هـ متاهباً للانقضاض من هناك على بغداد عاصمة الخلافة
العباسية.

الخلافة العباسية

لم تكن الخلافة العباسية أحسن حالاً من الدولة الخوارزمية عند هجوم المغول
على الشرق الإسلامي وترويعه في مطلع القرن السابع الهجري، فالخليفة العباسي
الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ) لم يفكر - مع طول فترة حكمه - في تكوين
جيش قوى منظم يعيد للخلافة العباسية هيبتها، ويرد عنها كيد الطامعين فيها، ويؤازر
المسلمين في جهادهم ضد أعدائهم المتربصين بهم من الصليبيين والمغول.

وقد اعتمد هذا الخليفة على سياسة تفريق القوى المحيطة به، وذلك بتحريضها
ضد بعضها، حتى يضعف من قدراتها العسكرية ويظل هو بآمن من تسلطها عليه،
ومن ذلك أنه حرّض الخوارزميين على التخلص من السلاجقة، فلما فرغوا منهم في
سنة ٥٩٠هـ طالبوه بنفس المزايا التي كان يتمتع بها السلاجقة في بغداد ومنها الخطبة
والمسكة ودار السلطنة^(١) فشرع في تأليب القوى الأخرى عليهم ليحقق نفس الغرض،
ومن أولئك القراخطاي والغوريون والإسماعيلية وأتابكة فارس وأذربيجان^(٢).
وقد بذل الخوارزميون جهداً كبيراً استنفذ كل طاقاتهم في محاربة تلك القوى،

(١) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٤٩-٥٠، براون: تاريخ الأدب في إيران
ص ٥٧٨، فؤاد الصياد: المغول في التاريخ ص ٧٠-٧١.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٤١، حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول
ص ٣٧.

ونجحوا فعلاً في التخلص منها، ثم اتجهوا غرباً إلى بغداد عاصمة الخلافة في سنة ٦١٤هـ لمعاوية الخليفة الناصر على ما فعله ضدهم، غير أن المغول كانوا قد ظهروا في أقصى الشرق واجتاحوا الصين الشمالية ودخلوا عاصمتها بكين سنة ٦١٢هـ كما سبق القول - ثم اتجهوا غرباً صوب تركستان وبلاذ ما وراء النهر، فاضطر الخوارزميون إلى التقهقر من ناحية بغداد، وعادوا لتأمين حدودهم الشرقية والشمالية بعد أن أنهكت قواهم وضعفت قدراتهم بفعل العواصف الثلجية التي أصابت جيوشهم عند مدينة همذان الإيرانية.

ولما سقطت الدولة الخوارزمية سنة ٦١٧هـ لم يجد المغول أدنى مقاومة حتى إن طلائعهم باتت تهدد بغداد نفسها، وحينذاك دخل الوزير ابن القمي على الخليفة الناصر مستصرخاً يا مولانا إن التار (المغول) قد ملكت البلاد، وقتلت المسلمين، فقال له الناصر: دعني إني في شيء أهم من ذلك، طيرتى اللقاء لي ثلاثة أيام ما رأيته^(١).

أما عن استعدادات الخليفة من الناحية العسكرية فهو أمر آخر يدعو إلى الأسف، فقد حكى مظفر الدين كوكبرى صاحب مدينة أربل التابعة للخلافة العباسية آنذاك، قال: لما أرسل إلى الخليفة في معنى قصد المغول قلت له: إن العدو قوى وليس عندي من العسكر ما ألقاه به، فإن اجتمع عندي عشرة آلاف فارس استنقذت به ما أخذوا من البلاد، فأمرني بالمسير، ووعدني بوصول العسكر؛ فلما سرت لم يحضر عندي سوى عدد لم يبلغوا ثمانمائة طواشي، فأقمت وما رأيت أن أغرر بنفسي وبالمسلمين^(٢).

(١) ابن حماد الموصلي: روضة الأعيان ورقة (١٤٠) مخطوط، ابن الساعي: تاريخ الخلفاء العباسيين ص ١٣٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٦٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٣٧٩، ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ج ٤ ص ٤٩-٥٠، القزاز: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ص ٧٣.

وعلى هذا، فإنه لا ينبغي أن تلقى التبعة كلها على السلطان الخوارزمي علاء الدين محمد (ت/٦١٧هـ) وحده، فهذا الخليفة يتحمل معه الجزء الأكبر فيما أصاب المسلمين من بلاء وشور على أيدي المغول.

وفي الحقيقة كانت الفترة منذ عودة جنكيزخان إلى منغوليا سنة ٦٢١هـ إلى سنة ٦٢٨هـ وهي السنة التي وصل فيها القائد المغولي جورماغون إلى غربي إيران بهدف القضاء على الخوارزميين فرصة نادرة للمسلمين كي يلتقطوا أنفاسهم ويوحدوا جهودهم في مواجهة الخطر الداهم، غير أنهم كالعادة انصرفوا إلى التنازع فيما بينهم حتى إذا ما عاد المغول من جديد لم يجدوا من يتصدى لهم، وعلى هذا فقد سقط السلطان جلال الدين خوارزمشاه المنهوك القوى سريعاً تحت ضرباتهم، وانفتح الباب على مصراعيه إلى بغداد وغيرها من المدن الإسلامية المجاورة في أرض الجزيرة وبلاد سلاجقة الروم وشمالي الشام، فأصبحت كل تلك المناطق فريسة سهلة في أيدي المغول.

وقد عمل الخليفة العباسي المستنصر بالله (٦٢٣-٦٤٠هـ) على مدافعة الهجمات المتتالية التي كان المغول يقومون بها على فترات متقطعة على بغداد وما حولها من المدن التابعة للخلافة ومنها أربل ودقوقا وشهر زود^(١) وقد ساعده في ذلك انشغال المغول في تلك الأثناء بتدعيم سيطرتهم على الشمال الغربي لإيران من جهة وبسط سلطانهم على بلاد الكرج والأرمن وسلاجقة الروم من جهة ثانية، وانهمك جيوشهم الرئيسية في القتال على جبهات متعددة كالصين وروسيا وأوروبا الشرقية من جهة ثالثة، ومن ثمة فإن إغارتهم على بغداد وما حولها كانت بهدف السلب والنهب واختبار مدى قوة الدفاعات حول هذه المدن.

(١) ابن القوطي: الحوادث الجامعة ص ٩٩، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج ٥ ص ١٢٩.

وفي سنة ٦٤٠ هـ آل منصب الخلافة إلى المستعصم بالله بن المستنصر، فاختر
استنصب الوزارة محمد بن العلقمي خلفاً للوزير السابق ابن الناقد^(١) وكلاهما من كبار
رجال الشيعة الإثني عشرية في هذا الوقت.

وقد شهدت بغداد في سنة ٦٤٣ هـ أول هجوم مغولي كبير عليها فخرجت
عساكر الخلافة لمواجهة هذا الخطر، غير أن المغول أشعلوا نيران معسكرهم ليلاً
ورحلوا عائدين^(٢) كعادتهم عند الانسحاب المنظم.

ويظهر أن هذا الحدث قد ترك أثراً واضحاً عند الخلافة العباسية، فقد وصل
رسولها في العام التالي مباشرة إلى قراقورم عاصمة المغول في منغوليا؛ ليشترك في
حضور القوريلتاي [المؤتمر المغولي العام الذي يختار فيه الخان الأعظم الجديد] الذي
كان على وشك إعلان تتويج كيوك بن أوكتاي بن جنكيزخان خاقاناً أعظم للمغول،
وفي البداية أحسن كيوك استقبال سفير الخليفة - الذي كان محملاً بهدايا تليق بمقام
الخاقان - وأكرمه ومنحه مرسوماً ملكياً، إلا أنه عاد واسترده منه، وحمله لوماً وشتماً
للخليفة بسبب شكوى جاءت من شيرامون بن جور ماغون قائد المغول العاملين في
غربي إيران^(٣).

وقد أسفر هذا الشعور العدائي الذي أعلنه الخان الأعظم كيوك ضد رسول
الخلافة العباسية عن حملة عسكرية ضخمة تحركت صوب الغرب في اتجاه بغداد،
وعلى رأسها القائد المغولي ايلجيداي - وهو مسيحي نسطوري - غير أن الأقدار لم

(١) ابن طباطبا: الفخرى في الآداب السلطانية ص ٢٧٠، الساعدي: مؤيد الدين بن العلقمي ص ٦٦.

(٢) ابن العبري: تاريخ الزمان ص ٢٨٩، النويري: نهاية الأرب ج ٢٧ ص ٣٤٨، ابن سباط: صدق
الأخبار ج ١ ص ٣٣٥.

(٣) الجويني: تاريخ جهانكشاي ج ١ ص ٢٣٦-٢٣٧، رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء
جنكيزخان) ص ١٨٤، براون: تاريخ الأدب في إيران ص ٥٧٤.

تمهل كيوك نفسه طويلاً فوافاه أجله سريعاً سنة ٦٤٦هـ، وقُتل قائد الحملة على يد مغول القهجاك فتأجل المشروع إلى حين^(١).

وفى أيام منكوقا أن الخان الأعظم المغولي (٦٤٨-٦٥٧) هـ شرع المغول فى تجهيز الحملة الضخمة التى أنيط بها تدمير قلاع الإسماعيلية وإسقاط الخلافة العباسية فى بغداد والاستيلاء على ما يليها حتى حدود مصر، وكانت مدفوعة بعوامل عديدة منها:

أ- شكوى القائد المغولى بايجو من الخلافة العباسية، إضافة إلى قلاع الإسماعيلية كما سبق القول.

ب- الضغط المسيحى من هيتون Hayton ملك أرمينيا الصغرى الذى سافر إلى قراقورم بعد عودة أخيه^(٢) من هناك وعقد معاهدة مع منكوخان ساهم الأرمن بموجبها فى حصار بغداد وفى مهاجمة بعض بلاد الشام فيما بعد تحت قيادة المغول^(٣).

ج- اطراد النزعة التوسعية عند المغول والرغبة الجامحة فى الاستيلاء على مناطق جديدة لا تملك مقومات الصمود العسكرى ضدهم.

د- الطموح الشخصى لهولاكو شقيق الخان الأعظم منكوق والرغبة فى تكوين مملكة مستقرة كذلك التى كانت لأبناء عمهما جوجى بن جنكيزخان فى جنوبى روسيا.

(١) بارتولد: تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى ص ٦٧٧، براون: تاريخ الأدب فى إيران ص ٥٧٤، سعد الغامدى: سقوط الدولة العباسية ص ٢٤٩.

(٢) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ١٩٢، حسن إبراهيم: انتشار الإسلام بين المغول والقتار ص ٢٨، جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على الشام ص ٢٨٥.

(٣) استارجيان: تاريخ الأمة الأرمنية ص ٢٢٩، انطوان خانجى: مختصر تواريخ الأرمن ص ٢٣٩.

أبداً كان الأمر فقد تحركت جحافل المغول لتنفيذ المهمة، وتكامل وصول جيش هولاكو إلى شرقى بغداد فى الثانى من المحرم سنة ٦٥٦هـ ثم قدم جيش مغولى آخر من جهة بلاد الروم يقوده بايجونوين فعبر نهر دجلة من ناحية الموصل، فدحر جيش الخلافة الضئيل عند نهر بشير ثم انطلق إلى غربى بغداد حيث أحكم الحصار حولها استعداداً لفتحها^(١) وقد شرعوا فى مهاجمة الأسوار فى الثانى والعشرين من المحرم سنة ٦٥٦هـ الموافق ٣٠ يناير ١٢٥٨^(٢).

وكان هولاكو قبل حصار بغداد بعدة شهور قد أرسل من همذان فى العاشر من رمضان سنة ٦٥٥هـ كتاباً إلى الخليفة المستعصم بالله يهدده ويقول له: "لقد أرسلنا إليك رسالنا وقت فتح قلاع الملاحدة وطلبنا مدداً من الجند، ولكنك أظهرت الطاعة، ولم تبعث الجند، وكان آية الطاعة والاتحاد أن تمدنا بالجيش عند مسيرنا إلى الطغاة، فلم ترسل إلينا الجند والتمست العذر.

ولا بد أنه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام ما حدث للعالم على أيدي الجيوش المغولية منذ جنكيزخان حتى اليوم، وعلمت بالذل الذى حاق بأسر الخوارزمية والسلجوقية، وملوك الديالمة والأتابكة، وغيرهم ممن كانوا أرباب العظمة وأصحاب الشوكة، وذلك بحول الله القديم الدائم، ومع ذلك لم يغلق باب بغداد فى وجه أى طائفة من تلك الطوائف التى تولت السيادة هنا، فكيف يغلق هذا الباب فى وجوهنا رغم ما لنا من قدرة وسطان؟!.

وقد نصحنك من قبل، والآن نقول لك: تجنب الحقد والخصام والضعيفة، ولا تحاول أن تقف فى سبيلنا؛ لأنك ستتعب نفسك عبثاً ومع ذلك فقد مضى ما مضى،

(١) ابن الفوطى: الحوادث الجامعة ص ٣٢٤، رشيد الدين: جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٨٥، مصطفى بدر: محنة الإسلام الكبرى ص ١٣٢.

(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٨٦، فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٦١.

و عليك أن تهدم الحصون، وتطم الخنادق وتسلم ابنك المملكة ثم تتوجه لمقابلتنا، وإذا كنت لا تريد ذلك، فأرسل إلينا الوزير وسليمان شاه والدوادار ليوصلوا رسالتنا إليك بغير زيادة ولا نقصان، فإذا أطعت أمرنا فلا حقد ولا ضغينة، وستبقى لك على دولتك وجيشك ورعيك، وأما إذا لم تنتصح، وسلكت طريق الخلاف والجدل، فأعد جيشك وعين ساحة القتال؛ فإننا مستعدون لمحاربتك، واعلم أنني إذا غضبت عليك، وقدت الجيش إلى بغداد، فسوف لا تتجر مني ولو صعدت إلى السماء أو اختفيت في باطن الأرض، فإذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرتك فاستمع لنصحي بمسمع العقل والذكاء وإلا فسأرى كيف تكون إرادة الله^(١).

ولم يجد الخليفة حلاً عملياً في مواجهة هذا التهديد السافر، وكيف له أن يجد وقد شغل نفسه عن أمور دولته وعن المسلمين وعن الاستفادة من التجارب العملية الماثلة للعيان بأمور ثانوية، فهو لاكو كان قد اجتاز نهر جيحون منذ عامين تقريباً، وأخذ الملوك والأمراء في إيران وما حولها يهرعون إليه، حتى إن قوات من فارس ويزد وكرمان كانت تشارك في حصار قلاع الإسماعيلية استجابة لطلب هو لاكو^(٢) والخليفة تارك الأمور تجري كيفما اتفق، فإذا نبه إلى ما ينبغي أن يفعله في أمر المغول إما بالمدارة والدخول في طاعتهم وتوخي مرضاتهم أو تجييش العساكر وملتقاهم بتخوم خراسان قبل تمكنهم واستيلائهم على العراق كان يقول "بغداد تكفيني ولا يستكثرونها على إذا تنازلت لهم عن باقي البلاد ولا يهجمون على، وأنا بها وهي بيتي ودار مقامي^(٣).

(١) البناكتي: روضة أولى الأكياب ص ٤١٦، محمد ماهر حمادة: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي ص ٣٤٥-٣٤٦.

(2) Bolye: History of Iran vol 5. P. 481.

وانظر أيضاً: مصطفى بدر: محنة الإسلام الكبرى ص ١١٨، والسيد العريني: المغول ص ٢١٣.

(٣) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ٤٤٥، الصدفي: تاريخ دول الإسلام ج ١ ص ٢٠٠، عباس إقبال: تاريخ مفصل إيران ج ١ ص ١٧٩.

وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا الفهم الضيق إلى ضياع الخلافة العباسية والخليفة المستعصم بالله معاً، فقد جاء استسلامه وخروجه إلى معسكر هولاكو إعلاناً نهائياً بسقوط بغداد ووضع المسلمين في الشرق الإسلامي تحت رحمة هولاكو وأعدائه ومستشاريه.

وفي يوم الأربعاء ١٤ صفر سنة ٦٥٦هـ أمر هولاكو بقتل الخليفة وتعقب أفراد الأسرة العباسية وقتلهم جميعاً^(١) فلم يفلت منهم إلا القليل.

وهكذا تحولت بغداد التي ظلت عاصمة الخلافة الإسلامية خمسة قرون إلى مدينة ثانوية تابعة للإيلخانية المغولية في إيران والتي اتخذت من مدينة مراغة عاصمة لها^(٢) وبدأ فصل جديد من الصراع المتواصل بين المغول والمماليك الذين أنيط بهم واجب الدفاع عن الأمة الإسلامية في هذه الفترة الحرجة من تاريخها.

(١) مصطفى بدر: محنة الإسلام الكبرى ص ١٤٦.

(٢) ياقوت: معجم البلدان ج ٥ ص ٩٣، القزويني: أثار البلاد وأخبار العباد ص ٥٦٢، الحميري: الروض المعطار ص ٥٣٥، وفيهم أن مراغة من أكبر مدن أذربيجان وتقع على مسافة ٧٠ ميلاً جنوبى تبريز، وكانت قد تعرضت لهجوم المغول، سنة ٦١٨هـ.

المظفر قطز وعين جالوت ٦٥٨هـ

تمكن الأمير قطز المعزى من الاستيلاء على السلطة فى مصر - كما سبق القول - وشرع فى الاهتمام بأمر الجند والاستعداد للجهاد وأرسل إلى الملك الناصر الأيوبي سلطان الشام يطلب منه الاتفاق، واجتماع الكلمة للمناصرة على العدو، وأن يكونا يداً واحدة على حرب المغول فحلف له على ذلك^(١). ولم يكتف قطز بذلك، فقد راسل الملك الأشرف مظفر الدين موسى صاحب حمص وكان قد عاد لتوه من جهة هولاءكو الذى كان مقيماً آنذاك فى مدينة حلب بعد سقوطها فى أيدي المغول فى ذى الحجة سنة ٦٥٧هـ/نوفمبر سنة ١٢٥٠م^(٢) ففوض إليه قطز نيابة السلطنة بالشام أجمع وحلب وغير ذلك فقبل الأشرف موسى رسالة قطز، ووعد رسوله أنه إذا حضر المصاف مع المغول أنهزم بهم عند لقاء المسلمين، أما الملك السعيد الأيوبي وكان موافقاً للمغول منذ خلعوه من سجن الملك الناصر له فى حصن البيرة على شط الفرات، حتى إن هولاءكو قد أعطاه فرماناً بملكية قلعتين على مقربة من دمشق هما الصبيبية وبانياس فإنه سب رسول قطز، وقال له عن قطز "من هو الذى يوافق هذا الصبى أو يدخل فى طاعته أو ينضم إليه"^(٣).

أما المماليك البحرية بقيادة بيبرس البندقدارى، فقد فارقوا الملك الناصر الأيوبي، لما رأوه من ضعف رأيه وتخاذله، وكان قد أرسل ابنه الملك العزيز ومعه تقادم وعدة من الأمراء إلى هولاءكو خان يطلب مده بالعون والجند كي يسترد مصر من أيدي

(١) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر ج٣ ص ١٩٩، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج٧ ص ٧٣.

(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ م ٢ ج ٢ ص ٣٠٦، فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٩٤.

(٣) النويرى: نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٤٧٣.

المماليك^(١) ثم أعرض عن ذلك لما تأكد من صحة عزم هولاكو على أخذ بلاده، والقضاء على ملكه، فبقى متحيراً لا يعرف إلى أين يذهب؟ إلى مصر حيث أعداؤه القدامى من المماليك، أم إلى الحجاز؟ وأخيراً هام على وجهه عند منطقة تيه بنى إسرائيل حتى قبض عليه كيتوبوقا قائد جيش المغول بوشاية من أحد أتباعه، فأرسله إلى هولاكو الذى قتلته بعد فترة فى تبريز بشمالى إيران انتقاماً لما جرى على جيشه من الهزيمة فى عين جالوت.

وأمام هذا التداعى الخطير الذى اعتور غالبية الملوك الأيوبيين فى الشام فى مواجهة المغول، حتى انتهى حالهم بين أمرين أولهما القبول بالتبعية لهولاكو وثانيهما الفرار من وجهه، وعلى هذا فقد وجد قطز نفسه مضطراً لاتخاذ عدة إجراءات منها:

أ- إجابة طلب المماليك البحرية والسماح لهم بالقدوم إلى الديار المصرية للاستفادة من براعتهم فى القتال، فكان وصولهم إلى القاهرة يوم السبت الثانى والعشرين من ربيع الأول سنة ٦٥٨هـ حيث أولى قطز الأمير بيبرس اهتماماً واضحاً، فتلقاه فى ديوان الوزارة وأقطعه قسبة قليوب^(٢).

ب- الشروع فى جمع الأموال، فقرر على كل رأس من أهل مصر والقاهرة ديناراً واحداً، وأخذ من أجره الأملاك شهراً واحداً، وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلاً، وأخذ من الترك الأهلية ثلث المال، وأخذ على الحيطان والسواقي أجره شهر واحد^(٣).

(١) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ١٩٧، اليونينى: ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٤٥، ابن الوردي: تنمة المختصر جـ ٢ ص ١٩٩.

(٢) ابن أبيك الدوادارى: كنز الدرر وجامع الغرر جـ ٨ ص ٤٩، النويرى: نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ٤٧١، العينى: عقد الجمان جـ ١ ص ٢٣٤.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ ص ٣٠٦، ص ٣٠٧.

ج- قبول انضمام البدو إلى الجيش ليسهموا بدورهم كمتطوعين في الدفاع عن مصر، وتناسى ما كان منهم في أيام الملك المعز أيبك^(١).

د- الاستفادة من الخلاف المفاجئ الذي وقع بين المغول والصليبيين في الشام حول مدينة صيدا، حيث هاجم أحد البارونات المسمى الكونت "جوليان الصيداوي" دورية مغولية، وقتل ابن أخى القائد كيتوبوقا، فسخط المغول، وتوجهوا إلى صيدا فاستولوا عليها في أوائل رمضان سنة ٦٥٨هـ ونهبوها وأخذوا منها ثلاثمائة أسير^(٢) فكان هذا إيذاناً بانتهاء الحلف الصريح بين المغول والصليبيين^(٣).

وهكذا أصبحت الجبهة المصرية مهيأة إلى حد كبير لخوض غمار الحرب المقبلة ضد المغول، وإن كانت قلوب المسلمين لا تزال ترجف رعباً مما قد يأتى به المستقبل القريب من نتائج مروعة إذا ما انتصر المغول في هذه المعركة الحاسمة.

وجاءت وفاة الخان الأعظم المغولى منكو أن فى أواخر سنة ٦٥٧هـ — رحمة بالمسلمين عامة وبأهل الشام ومصر خاصة فقد اضطر أخوه هولاكو إلى مغادرة حلب فى يوم الأحد الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٥٨هـ/سنة ١٢٦٠م متوجهاً إلى إيران مع القسم الأكبر من جيشه المغولى، تاركاً لقائده الكبير كيتو بوقا مهمة إتمام الحرب ضد المماليك^(٤).

وكان هولاكو خان قبل رحيله قد أرسل - على عادة المغول فى مثل هذه

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٢٠٧، اليونينى: ذيل مرآة الزمان ج ١ ص ٣٦١.

(٢) هانس إيرهار دماير: تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٩٩، ستيفن رنسيمن: تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٥٣٨.

(٣) فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٩٩، وانظر أيضاً

Grousset: L'empire Des steppes. P. 437.

(٤) رشيد الدين: جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٣٠٦، السيد العرينى: المغول ص ٢٦٣.

الأحوال - خطاب تهديد شديد اللهجة إلى الملك المظفر قطز، جاء في أوله "من ملك الملوك شرقاً وغرباً، القآن الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء، يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتنعمون بأنعامه، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك، يعلم الملك المظفر قطز، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال أنا نحن جند الله فى أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حلَّ به غضبه، فلکم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمرکم.. إلخ^(١).

وقد رأى قطز بحصافة أن يخرج لمقاتلة عدوه إلى الشام مفضلاً ذلك على انتظاره عند الصالحية كما كان يشير بذلك بعض أمراء المماليك، وتمكن بيبرس الذى كان يقود طليعة الجيش المصرى من إلحاق أول هزيمة بطلائع المغول التى كانت قد تقدمت إلى منطقة غزة، فعند ذلك فاتحة خير للمسلمين، وبدأ أهل الشام يلتقطون أنفاسهم ويترقبون نتيجة المعركة الحاسمة.

أما المظفر قطز فبعد أن دخل غزة سلك طريق الساحل، فاجتاز مدينة عكا وهى يومئذ بأيدي الصليبيين، فلما عاينوه أرسلوا إليه الهدايا والتحف، والتقاء ملكها فعرض عليه أن يأخذ عسكره ويسير فى خدمته، فلاطفه السلطان قطز، وخلع عليهم واستحلفهم ألا يكونوا له ولا عليه، وقال لهم: والله العظيم متى سار معى فارس منكم أو راجل قاتلكم قبل ملتقاي للمغول، فعند ذلك كتب ملك عكا إلى أتباعه بما سمعه من السلطان^(٢).

(١) ابن أبيك الدوادارى: كنز الدرر وجامع الغرر جـ ٨ ص ٤٧ ص ٤٨، القلقشندي: صبح الأعشى

جـ ٨ ص ٦٣، المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ق ٢ ص ٤٢٧، ص ٤٢٩.

(٢) ابن دقماق: الجواهر الثمين جـ ٢ ص ٦٢-٦٣، وليم موير: تاريخ دولة المماليك فى مصر

ص ٣٩.

وفى الحقيقة لم تكن أحوال الصليبيين تسمح لهم بتقديم أية مساعدة للسلطان قطز أو المغول، حيث تطور النزاع الذى نشب بين الجنوية والبنادقة سنة ٦٥٤هـ / سنة ١٢٥٦م إلى حرب أهلية دخلت فيها كل العناصر المسيحية ومنها الداوية والاسبترارية وغيرهما على طول ساحل الشام براً وبحراً، فقتل عدد كبير منهم وتلفت كميات هائلة من البضائع، ولم ينته هذا الصراع إلا بعقد معاهدة بين الطرفين فى شوال سنة ٦٥٦هـ أكتوبر سنة ١٢٥٨م^(١).

أما لدى الجانب المغولى فقد اعتمد كيتوبوقا - بالإضافة إلى خبرته الطويلة فى الحروب وصيته الذائع فيها - على عدة اعتبارات توهم أنها ستحقق له الانتصار على المصريين منها:

أ- مقولة الملك الناصر يوسف صاحب حلب لهولاكو من أنه لم يبق بمصر إلا نفر قليل من العسكر، وبقايا من ممالك لا يابه أحد لهم، وأنه يكفى القليل من الجيش المغولى لإلحاق الهزيمة بهم^(٢).

ب- الاعتقاد بأن الممالك ما داموا قد انقسموا على أنفسهم وتصارعوا على السلطة فلن يكون بوسعهم إعداد جيش قوى موحد يمكنه الصمود طويلاً فى الحرب.

ج- مساندة بعض الملوك الأيوبيين للمغول ومنهم الملك السعيد صاحب الصببية، والملك الأشرف صاحب حمص.

د- انهيار الروح المعنوية لدى الشاميين والمصريين وشعورهم باليأس من إمكانية تحقيق النصر على المغول بعد الهزائم التى ألحقها هولاكو

(١) هانس إيرهارد: تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٩٣، أحمد العبادى: فى التاريخ الأيوبى والمملوكى ص ١٥٢.

(٢) بيبرس الدوادارى: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ص ٦٧.

بالإسماعيلية في إيران والعباسيين في العراق والأكراد وغيرهم بالجزيرة،
والشاميين في حلب ... إلخ.

وبلغ من غرور كيتوبوقا وصلفه، أن استكثر على الممالك نجاحهم في هزيمة
طليعة جيشه بقيادة بيدرا عند غزة، وبالتالي رفض انتظار الإمدادات التي كانت في
طريقها إليه من بعلبك ودمشق، وألقى بنفسه وجيشه في آتون المعركة.

وفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨هـ —/الثالث من
سبتمبر سنة ١٢٦٠هـ^(١) انتصر المصريون بقيادة السلطان قطز على المغول في عين
جالوت انتصاراً حاسماً ردّ الاعتبار للروح الإسلامية المفتقدة بعد أن كان قد أنهكها
الخوف واليأس والعجز طويلاً.

ويرى المؤرخ الشيعي العراقي الدكتور جعفر خصباك غير ذلك فهو يقول "ولا
عبرة بهزيمة المغول في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ؛ لأنها معركة وقعت بين جزء فقط
من جيش هولاكو وقوات إسلامية وسورية متفوقة عليها تفوقاً كبيراً"^(٢).

وفي تقديري أن هذا الرأي قد تحامل كثيراً على المصريين وعلى انتصارهم
الكبير في عين جالوت إذ لا عبرة في معارك المغول في هذا العصر بعدد الجند أو
كثرة العتاد، فالتاريخ يذكر أن المغول قد حققوا انتصارات حاسمة في الصين وبلاد ما
وراء النهر وشرقي أوروبا على جيوش تفوقت عليهم كثيراً في العدد والعتاد، وذلك لما
كانوا هم عليه - آنذاك - من حسن الإعداد والتدريب ودقة الاستطلاع والتخطيط،
ومهارة المناورة والمباغنة وكفاءة القيادة والالتزام بالطاعة للأباطرة.

وبالإضافة إلى ذلك كان المغول يحاربون بسلاح آخر أشد فتكاً، وهو الحرب

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٢٠٧، الجنابي: الحافل الوسيط ج ٢ ص ٣٦ (مخطوط)،

ابن الوردي: تنمة المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٢٠٦.

(٢) جعفر خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين ص ١٨.

النفسية، فقد نشرُوا الرعب حولهم فى كل أرض حلوا بها، وتركوا خلفهم أثاراً مروعة من التدمير وسفك الدماء وهتك الأعراض، حتى فقد الناس جميعاً الأمل فى أن ينتصرو عليهم أحد أياً كان، وتفيض كتابات المؤرخين المعاصرين ومنهم على سبيل المثال لا الحصر ابن الأثير (ت/٦٣٠هـ) النسوى (ت/٦٤٤هـ)، سبط ابن الجوزى (ت/٦٥٤هـ) بنماذج كثيرة لهذا التوحش المغولى الذى لا نظير له.

ولم يكن هذا الرعب من نصيب العامة فقط بل إن كثيراً من الحكام قد نالهم قسط كبير من ذلك فسارعوا إلى حضرة هولاكو فى مراغة وتبريز يقدمون فروض الولاء والطاعة ومنهم السلطان عز الدين السلجوقى، وأخوه ركن الدين^(١) والأتابك سعد الدين بن أبى بكر أتابك فارس^(٢) وبدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل^(٣) وليت الأمر توقف عند ذلك فإن الملوك الأيوبيين فى الشام سارعوا أيضاً إلى أداء نفس الدور المخزى وشارك بعضهم بشجاعة فائقة فى الحرب ضد المسلمين فى عين جالوت فكان جزاؤه القتل^(٤). وهناك عنصر آخر مهم استبسل فى القتال إلى جانب المغول فى عين جالوت مدفوعاً بتعصبه الدينى، وهؤلاء هم الأرمن والكرج الذى وجدوا فى السير فى ركاب الغزو المغولى المدمر إرضاء لما استكن فى نفوسهم من حقد وضغينة تجاه المسلمين الذين عادت إليهم ملكية بيت المقدس منذ سنة ٦٤٢هـ.

ويكفى لكى ندرك مدى خطورة الموقف فى عين جالوت أن نتصور أن المغول هم الذين كانوا قد كسبوا المعركة، والنتائج التى كان يمكن أن تترتب على ذلك وأثرها

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ م ٢ ج ٢ ص ٣٠١، عباس العزاوى: تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٢١٨.

(٢) محمد موسى هنداوى: سعد الشيرازى ص ١٥٤، السيد العرينى: المغول ص ٢٢٨.

(٣) خواند امير: حبيب السير م ٣ ج ١ ص ٩٧، عباس إقبال: تاريخ مفصل إيران ج ١ ص ١٨٤.

(٤) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٥٣، ابن إبراهيم الحنبلى: شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص ٣٢٤.

فى حياة المسلمين فى مصر والشام والحجاز.

وعلى هذا يمكننا أن نقرر أن الرأى القائل بأن موقعة عين جالوت لا عبرة لها، إنما هو من قبيل التجاوز وعدم الدقة فى التعبير والتقدير.

نتائج موقعة عين جالوت

لم يكن القتال فى عين جالوت أمراً سهلاً مرده إلى العدد أو العناد، ولقد شعر المسلمون بصعوبة الموقف فى أثناء القتال، حتى إن السلطان قطز عندما شعر بازدياد الضغط على جنده ألقى بخوذته على الأرض واندفع قسماً مقدمة جيشه صارخاً "وا إسلاماه" فاستبسل جنده فى القتال وتراصوا فى ثبات من جديد فى مواجهة العدو الشرس حتى تمكنوا من زحزحته وأعادوه إلى مواقعه الأولى، فكان هذا الثبات مفتاح النصر الكبير، وما تلاه من نتائج مهمة منها:

أ- القضاء على الخرافة المتواترة التى كانت تقول: إن المغول قوم لا يغالبون، وبالتالي زال لدى المسلمين الإحساس بالخوف من المغول واليأس من تحقيق النصر عليهم.

ب- اندحار المد المسيحي النسطورى القادم من الشرق تحت عباءة الغزو المغولى والذى تمكن من قبل فى تحقيق بعض النجاح فى إيران والعراق، وتوافق مع مسيحي الكرج والأرمن.

ج- إعادة الوحدة السياسية بين مصر والشام بعد أن تقاعس الأيوبيون عن تحقيقها، وتخاذلوا أمام المغول ما بين هارب أو خاضع.

د- يعث روح جديدة فى المسلمين وبخاصة الإيرانيون الذين تحملوا وطأة الغزو المغولى المتوالى، فنهضوا محاولين اجتذاب المغول إلى حوزة الإسلام الذى

نجح بعد صراع طويل مع البوذية والمسيحية فى تحقيق هذا السبق الحضارى^(١).

هـ- فتح مجال رحيب للعلاقات الحميمة بين الممالك فى مصر، والمغول فى القبايق، وكانوا قد دخلوا الإسلام مقتدين بزعيمهم بركة خان ابن عم هولاكو وكان قد استاء لما فعله هولاكو بالمسلمين فى بغداد، ومن إقدامه على قتل الخليفة العباسى المستعصم بالله بعد أن خرج إليه مستأمناً.

و- تدعيم سلطة الممالك فى مصر والشام، وإضفاء الشرعية عليها باعتبارها حامية للإسلام، وصانئة للحرمين الشريفين وقت اشتداد الخطر.

ز- حماية أوروبا من تهديد المغول لها، إذ إن المغول لو تقدموا إلى أوروبا الغربية، واستقروا فيها بعاداتهم السهوية القلقة، لكان تأثيرهم مروعاً على الحياة هناك^(٢) ولقد سبق للأوربيين فى شرقى قارتهم أن ذاقوا الأمرين على أيدي المغول فى بلغاريا والمجر وبولندا، بل أن مدينة صيدا الصليبية على ساحل الشام لم تسلم من أذاهم وضررهم كما سبق القول.

ح- تحول أنظار المسلمين إلى القاهرة التى غدت عاصمتهم الأولى ومركزهم الثقافى الأمن بعد أن تحولت بغداد عاصمة الخلافة العباسية والمسلمين إلى مدينة ثانوية فى ظل دولة هولاكو فى إيران، الذى اختار مدينة مراغة فى أنربيجان لتكون عاصمة لدولته التى امتدت من نهر جيحون شرقاً إلى نهر الفرات غرباً.

(١) فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٣١٨، ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٥٣٨.

(٢) إبراهيم العدوى: التاريخ الإسلامى أفاقه السياسية وأبعاده الحضارية ص ٣٨٤.

أترك فطر بوضوح أن انتصاره على المغول في عين جالوت لن يكون نهائية المطاف، ومن ثمة كان عليه أن يعيد ترتيب الأوضاع في الشام حتى يتمكن من إعداد جهة قوية تصمد في مواجهة الغزو المغولي المرتقب، وعليه فقد شرع في اتخاذ عدة إجراءات مهمة منها:

أ- القضاء على بقايا المغول شمالي الشام

وكان الفارون من المغول بعد هزيمتهم في عين جالوت قد سارعوا إلى الاتجاه شمالاً، وانطلق في أثرهم الأمير بيبرس البندقداري، فوجدهم قد سارعوا إلى ترك ما كان معهم من أسرى المسلمين، وحاولوا التخفيف مما معهم حتى أنهم رموا أولادهم وضربوا رقاب من عجزوا عن حمله من نساءهم، فالحق بيبرس بهم هزيمة قاسية عند مدينة حمص^(١) فتجراً عليهم المسلمون بعد ذلك وانطلقوا خلفهم يقتلون ويأسرون منهم بعد أن كان الرعب قد تمكن في القلوب من ناحيتهم.

ب- السيطرة على دمشق

خضعت دمشق لسيطرة المغول بعدما ألحقوا الدمار بكثير من المدن الشامية التي استولوا عليها من قبل، ونال المسلمين فيها على وجه الخصوص كثير من الأذى، ولهذا بادر إليها السلطان قطز، فتغيرت فيها أوضاع كثيرة منها:

١- إزالة عملاء المغول عن رئاسة السلطة في دمشق، وكان هؤلاء عقب فوار الملك الناصر الأيوبي عن المدينة ودخول المغول إليها قد ساموا الأهالي كثيراً من الخسف والظلم، وعلى رأس هؤلاء الوزير الخائن زين الدين الحافظي الذي بادر مع رفاقه بالهرب إلى هولاكو في مراغة، أما من تبقى في دمشق من هؤلاء العملاء فقد أمر قطز بشنقهم^(٢).

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٢٠٩، العيني: عقد الجمان ج ١ ص ٢٤٤.

(٢) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٥٤، ابن دقاق: الجوهر النمين ج ٢ ص ٦٤، ابن سباط: صدق الأخبار ج ١ ص ٣٩٢.

٢- كف أيدي المسلمين عن الانتقام من النصاري بدمشق، وكان هؤلاء - كما عرفوا أن كيتوبوقا ونائبه أيل سبان يدينان بالمسيحية على المذهب النسطوري - قد استطالوا على المسلمين بدق النواقيس، وإدخال الخمر إلى الجامع الكبير، ورفع الصليب والمروور به في شوارع المدينة، وإلزام الناس في حوائثهم على القيام له، والتمادي في ذم الإسلام والقول بأن النصرانية هي الدين الصحيح، فلما تحقق النصر في عين جالوت ثار جماعة من العوام وحرقوا كنيسة مريم، وخرّبوا بعضها في السابع والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨هـ، فوصل كتاب السلطان قطز لتسكين الناس وطمأننتهم^(١) وبوصله إلى دمشق خمدت هذه الفتنة واستقرت نفوس المسلمين والمسيحيين معاً.

٣- تفويض نيابة دمشق إلى الأمير علم الدين سنجر الحلبي الصالحى وتكليف الأمير فخر الدين أبى الهيجا خستري بتولى الجوانب الإدارية في المدينة، وإلزامهما بالإسراع في معالجة آثار الوجود المغولى ورد المظالم وإعادة الحقوق^(٢).

ج- ترتيب نواب السلطنة

وقد انتهج قطز في ذلك منهجاً غير متوقع، فعلى الرغم من الصراع العنيف بين المماليك والأيوبيين على الحكم فإنه أقرّ الملك الأشرف مظفر الدين موسى على مملكته بحمص والرحبة وتدمر، ولعل مرجع ذلك إلى أن الأشرف موسى قد التزم بما سبق أن

(١) ابن شابر الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها ج ٣ ص ٢٠١، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٨٠، ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٩١.
(٢) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٢٠٥، الذهبى: العبر فى خبر من غير ج ٥ ص ٢٤٢.

تعهد به قبل عين جالوت، كذلك أقرَّ الملك المنصور بن الملك المظفر على مملكته بحماه، أما حلب فقد عهد بها إلى الملك المظفر بن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل السابق^(١) ولعل قطز كان يهدف من وراء ذلك إلى أن تأتيه أخبار تحركات المغول بانتظام من الموصل التي تعتبر أقرب البلدان موقعاً إلى المعسكر الرئيسي للمغول في مراغة.

مصرم قطز

لما شعر قطز باستتباب الأمور في الشام قرر أن يعود أدراجه مرة أخرى إلى مصر، فقاد الجيش حتى وصل إلى حدود الصالحية، وهناك وقع في خطأ جسيم حيث خرج منفرداً للصيد، فانتهاز خصومه من المماليك البحرية بقيادة بيبرس البندقداري الفرصة واغتالوه يوم السبت سادس عشر ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ^(٢).

وفي الحقيقة فإنه لا ينبغي إرجاع مسألة اغتيال السلطان قطز إلى إخلافه وعده لبيبرس بإدارة حلب فحسب، وذلك أن قطز كان يدرك تماماً أن كبار أمراء المماليك البحرية وعلى رأسهم بيبرس إنما يطمعون في منصب السلطان لأن كل واحد منهم كان يرى في نفسه الجدارة في الوصول إلى هذا المنصب الخطير، وبالتالي كانوا يستكثرون على قطز أن يستحوذ دونهم بالأمر، كذلك كان قطز يدرك أنه إذا منح بيبرس إمارة حلب، فلن يكون ذلك إلا بداية انقسام خطير تهتز له أركان الدولة، فما كان بيبرس ليتوقف عن تجميع أمراء المماليك البحرية وغيرهم عنده ليشرع من هناك

(١) النويري: نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ٤٧٦، ابن دقماق: الجواهر الثمين جـ ٢ ص ٦٠، المقرئ: السلوك جـ ١ ق ١ ص ٤٢٥.

(٢) ابن أبيك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر جـ ٨ ص ٦٠، الذهبي: العبر جـ ٥ ص ٢٤٢، العيني: عقد الجمان جـ ١، ص ٢٦٠.

فى التحرك صوب مصر فتعود الدولة إلى حالة التمزق التى كانت عليها قبل عين جالوت.

أما أخطاء قطز التى أودت بحياته وعرشه فهى إعطاء الوعد وأخلافه وعدم الاحتراس بالخروج منفرداً إلى الصيد، وترك المتأمرين يدبرون له رغم علمه بذلك على أمل أن الخلاص منهم يكون أوفق فى قلعة الجبل بمصر فعاجلوه، وقضى الله فيه أمره، وعلى وجه العموم كان قطز موصوفاً بالمواظبة على الصلوات، مجتنباً شرب الخمر، كما كان شجاعاً مقداماً حسن التدبير لشئون مملكته^(١) فى الفترة القصيرة التى تولاها.

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٢١٠، ابن تغى: بردى: النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٨٤.

المبحث الرابع

تأسيس الدولة

الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ - ١٢٦٠ - ١٢٧٨ م)

نجح الأمير بيبرس وزملاؤه من المماليك البحرية في اغتيال السلطان المظفر قطز في أوج انتصاره كما سبق القول وانطلقوا جميعاً إلى المخيم السلطاني عند الصالحية. حيث جرى انتقال السلطة إلى المتغلبين، وأضحى بيبرس سلطاناً عقب مبايعة أتابك العسكر الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب له، ثم توجهه مع الجيش إلى القلعة حيث بايعه نائب السلطنة الأمير عز الدين أيدمر الحلبي، فدانت له أمور السلطنة كافة في مصر وبادر بيبرس عقب ذلك إلى إدخال بعض التعديلات العسكرية والسياسية، فأبقى أتابك العسكر السابق في نفس وظيفته إلى حين تستقر له أمور الجيش، وعزل نائب السلطنة وعين مكانه الأمير بدر الدين الخازندار، وعزل عن الوزارة صاحب يعقوب بن الرفيغ وولى مكانه صاحب بهاء الدين بن حنا، ثم شرع يقرب إليه كبار الأمراء ويغدق عليهم الرتب والإقطاعات حتى أحكم قبضته على مختلف الشئون الإدارية والعسكرية في الدولة^(١).

وفي خطوة أخرى أكثر وعياً أبطل بيبرس كل ما كان السلطان قطز قد فرضه على الأهالي من الضرائب عند إعداد جيشه للخروج لملاقاة المغول^(٢) فزال عنهم الخوف الذي كان قد ملأ قلوبهم من المماليك البحرية عند توليه السلطنة لأنه منحه ورئيسهم.

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين ج ٢ ص ٦٧، العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ج ١ ص ٢٦٣، ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ ص ٣١٠.

(٢) النويري: نهاية الأرب ج ٣ ص ٣٧٧، الذهبي: العبر ج ٥ ص ٣٠٩، ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ ص ١٠٣.

ولم يكتف ببيرس بما سبق بل أظهر التقرب إلى العلماء والقضاة والفقهاء، وأبدى اهتمامه بالمتصوفة وعدّد زيارته لهم، واحتفى بمشايعهم القبارى والشاطبي والبدوي، وأولى الشيخ خضر عناية خاصة ومكّنه في كثير من أمور الدولة حتى إنه كان يصطحبه في كثير من حروبه وأسفاره^(١).

ومن جانب آخر حرص ببيرس على إقامة العدل بين رعاياه ومعاملتهم بالمساواة، فتولى بنفسه النظر في المظالم وأقام تحت قلعة الجبل لذلك دار العدل التي كان يتولى رئاستها، ويجلس بها للفصل في قضايا رعيته في يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع.

كذلك أدخل الظاهر ببيرس تعديلات على نظام القضاء، إذ لما تبين له توقف قاضى قضاة مصر تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز الشافعى في كثير من القضايا لكثرتها، وافق على أن يكون القضاء في مصر على المذاهب الأربعة، فأقر تاج الدين الشافعى في قضاء الشافعية، وولى الشيخ شرف الدين عمر بن صالح السبكي قضاء المالكية، والقاضى بدر الدين بن سليمان قضاء الحنفية، والقاضى شمس الدين محمد بن الشيخ عماد الدين إبراهيم المقدسى قضاء الحنابلة، وكتب لكل منهم تقليداً وأجاز لهم أن يولوا نواباً عنهم بأنحاء الديار المصرية^(٢).

وأظهر ببيرس تمسكه بالدين الإسلامى فاتخذ قراراً بإبطال الخمر وإغلاق الحانات ثم زاد فى عقوبة شارب الخمر، فبعد أن كانت تتوقف عند الجلد فقط أصبحت تشمل الإعدام أيضاً، فارتدع بذلك جماعة كبيرة والتزموا جادة الصواب^(٣).

(١) اليونينى: ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٣٢٤، الياقعى: مرآة الجنان جـ ٤ ص ١٦١، ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ ص ١٠٣.

(٢) النويرى: نهاية الأرب جـ ٣٠ ص ١١٨، المقرئى: السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٥٣٨-٥٤٠.

(٣) ببيرس المنصورى: التحفة الملوكية فى الدولة التركية ص ٥٦.

وكان على بيبرس بعد ذلك أن يدعم شرعية ملكه بوجه خاص، وأحقية المملوك في الحكم بوجه عام، وكان عليه أن يدعم ذلك أمام عامة المسلمين بوسائل عملية، فرأى بثاقب بصره أن يسلك في هذا المضمار اتجاهين مهمين:

١- السيطرة على الأراضي المقدسة

أدى سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ في يد المغول إلى توقف الحجاج العراقيين في أمر الحج، فلم يعد لهم تقدم كما كان في زمن الخلفاء العباسيين، لأن المغول بعد إزالتهم الخلافة العباسية في بغداد لم تكن لهم ولاية على الحرمين الشريفين، وصار التقدم في إقامة شعائر الحج لأمير الحج المصري لكون السلطان بالديار المصرية قد أصبح نافذ الأمر فيهما، لقيامه بمصالحهما من كسوة البيت الحرام ورعاية الحجيج، بتأمين سبيل الحج لهم، ورفع المكوس عنهم وغير ذلك، وأول من قام بذلك بعد الخلفاء العباسيين من ملوك مصر الظاهر بيبرس.

وكان النصر العظيم الذي حققه المسلمون في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ قد أكسب الظاهر بيبرس مكانة سامية بين ملوك عصره، ومن ذلك أن الملك المظفر يوسف بن المنصور صاحب اليمن كان قد خرج إلى مكة ليؤدي شعائر الحج سنة ٦٥٩هـ، فخرج عنها الشريفان إدريس بن قتادة، وأبو نمي خوفاً منه، فلما قضى ما يجب عليه من الوقوف بعرفة وقف عند الصخرات، وطلعت أعلامه مضمومة مع أعلام الملك الظاهر بيبرس، فقال له أحد أمرائه: هلا أطلعت أعلامك يا مولانا السلطان قبل أعلام المصريين، فقال له سلطان اليمن: "أتراني أؤخر أعلام ملك كسر المغول بالأمس، وأقدم أعلامي لأجل حضوري ومغيبه، لا أفعل هذا أبداً" ثم مضى في حجه فاتمه^(١).

(١) عمر بن فهد: إتحاف الوري ج ٣ ص ٨٢، الخزرجي: العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ج ١ ص ١٢٣.

وقد اشترط الظاهر بيبرس على أمير مكة أن يمدد مدنها الإقطاع من قبل
المكوس من أهالي مكة، والإقطاع عن جرمين أحد من المعاصرين من زيارته في مكة
الحرام، وعدم التعرض للتجار، وأن يمدد بأن تكون الخطابة والسعة باسمه (١)
أما مدينة الرسول الكريم ﷺ فقد أبدى السلطان بيبرس اهتماما كبيرا بها، فحضر
في أوائل تملكه الأخشاب والحديد والرمال، ومن المصانع ثلاثة وخمسين مصنعا
ما رزقهم، وأنفق عليهم وأمدهم بما يحتاجون إليه من الآلات والأقوات، حتى أن
عمارة المسجد النبوي الشريف الذي كان قد تعرض لحريق هائل في أول رمضان سنة
٦٥٤هـ (٢).

كذلك جدد بيبرس الهمارستان (المستشفى) بالمدينة النبوية، وقال إليه من
المعاصرين (المراهم) والأكحال والأشربة (الأدوية)، وبعث إليه طبيباً من الديار
المصرية (٣).

ولما رأى بيبرس أن الأمر قد استقر له توجه بنفسه إلى الحج لقضاء مناسكته،
فبدأ بزيارة قبر الرسول ﷺ ثم سار إلى مكة فأدى بها شعائر الحج، وعلق كسوة البيت
الحرام بيده، وخلع على كبار رجال الحجاز (٤) وكان بيبرس يهدف من وراء ذلك كله
إلى تأكيد سيطرته على الحجاز من ناحية واكتساب احترام المسلمين عامة له باعتباره
حامى الحرمين الشريفين من ناحية أخرى.

-
- (١) المقرئى: السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٥٨، جمال سرور: دولة بيبرس في مصر ص ١١٦.
(٢) بيبرس المنصورى: مختار الأخبار ص ٢٢، السخاوى: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة
جـ ١ ص ٣٨٥.
(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور: الظاهر بيبرس ص ١٦٠.
(٤) النويزى: نهاية الأرب جـ ٣٠ ص ١٦٦-١٦٧، المقرئى: السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٥٨٠-٥٨٢.

٢- إحياء الخلافة العباسية

استند الظاهر بيبرس فى هذا الشأن إلى اعتقاد مؤداه أن الخلافة العباسية هى المصدر الشرعى الذى يعتد عامة المسلمين فى أن الولاء له يمنح الحكام المسلمين شرعية الحكم فى بلادهم، ومن ثم شرع فى استدعاء أحد أبناء البيت العباسى إلى القاهرة حيث جرت مراسم تقليده منصب الخلافة العباسية فى احتفال مهيب حضره كبار أمراء المماليك والأئمة والقضاة والعلماء وعلى رأسهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام ليشهدوا على صحة نسب الخليفة الجديد^(١).

وكان من الطبيعى أن يقلد الخليفة العباسى فى القاهرة السلطان بيبرس حكم البلاد التى بيده، وما يفتح به الله عليه من البلاد الإسلامية الواقعة تحت سيطرة المغول أو الصليبيين، وعلى هذا نقش السكة باسميهما معاً، وتصدر اسم الخليفة العباسى الخطبة سابقاً على اسم الظاهر بيبرس^(٢) الذى حظى بلقب "قسيم أمير المؤمنين". وفى الحقيقة كان الظاهر بيبرس يبغي من وراء إحياء الخلافة العباسية السنية بالقاهرة إلى أهداف عدة منها:

- القضاء نهائياً على أى أمل لبقايا الشيعة الإسماعيلية فى مصر^(٣) فى استعادة الحكم للفاطميين، وكانوا يطمعون فى ذلك لما زالت الدولة الأيوبية بمقتل توران شاه بن نجم الدين أيوب فى مصر سنة ٦٤٧هـ.

(١) النويرى: نهاية الأرب جـ ٣٠ ص ٢٩، بيبرس المنصورى: مختار الأخبار ص ١٥.

(٢) ابن سباط: صدق الأخبار جـ ١ ص ٤٠٥، محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك م ١ جـ ٢ ص ١٢.

(٣) وليم موير: تاريخ دولة المماليك فى مصر ص ٤٢، هنرى لاووست: نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٧٢.

- إبطاء أى محاولة قد يقوم بها أى فرع من الأيوبيين لاسترجاع الملك من الممالك عامة، ومنه هو بوجه خاص.

- ردع كبار أمراء الممالك ممن قد تسول لهم أنفسهم أن يكونوا أنداداً له أو منازعين على العرش.

- رغبة الملك الظاهر فى الظهور بمظهر الحامى الأول للمسلمين والإسلام^(١). وعلى الرغم من ذلك فقد واجهت بيبرس صعوبات عديدة داخل مصر وخارجها، فسارع إلى مواجهتها بقوة وصلابة حتى نجح فى التغلب على معظمها، فأثبت بذلك كفاءة وحسن سياسة.

أولاً، فى الداخل

أ- ثورة الشيعة

وتلك حركة تزعمها رجل يدعى الكورانى، كان قد ظهر فى أيام السلطان الشهيد المظفر قطز، وادعى أشياء من قبيل البدع، فاعتبرت خروجاً منه على الدين فاعتقل وجلد حتى تاب، وجدّد إسلامه على يد الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ثم أطلق من الاعتقال فأقام بالجبل الأحمر^(٢) شرقى القاهرة.

وعقب اعتلاء الظاهر بيبرس عرش السلطنة فى مصر فى أواخر سنة ٦٥٨هـ عاد الكورانى لممارسة نشاطه من جديد، فأظهر الزهد وجمع حوله جماعة من الغلمان

(1) Prawdin: the mongol Empire P. 363.

وانظر أيضاً: بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٦٦، على إبراهيم حسن: تاريخ الممالك البحرية ص ٢٢٢.

(2) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ٢ ص ٤٢٠، إبراهيم نور الدين: حياة السيد البدوى ص ٨٢.

الذين يعملون فى اصطبلات الممالك وانضم إليهم بعض السودان، فحرضهم الكوراني على العصيان وشق عصا الطاعة على الدولة، وكتب لهم رقاعاً بإقطاعات حدها لهم وعلى هذا خرجوا ليلاً وشقوا القاهرة وهم ينادون (يا آل على)، وفتحوا دكاكين السيوفيين بين القصرين، وأخذوا ما فيها من سلاح، كما اقتحموا اصطبلات الجيش وأخذوا منها الخيول، فخرج إليهم العسكر وأحاطوا بهم وأوثقوهم، فأصبحوا مصلوبين على باب زويلة وسكنت النائرة^(١).

وبالطبع كان هؤلاء من الذين يعتنقون المذهب الشيعى الإسماعيلى الذى كانت بقاياه لا تزال موجودة منذ أيام الفاطميين فى مصر، ومن ثم كانت هذه الثورة بحريصاً على قلب نظام الحكم المملوكى السنى واستبداله بنظام آخر شيعى^(٢).

وتركت هذه الثورة أعظم الأثر فى سياسة بيبرس الذى أصبح يحقد على هؤلاء الشيعة الذين حاولوا زلزلة أركان عرشه الذى لم يكن قد تولاها إلا منذ شهور قليلة وسفك من أجله دماء غالية ما كان لها أن تسفك، وأغلب الظن أن القضاء على هذه الثورة الشيعية لم يكن كافياً فى تقدير بيبرس للتخلص التام من أنصار المذهب الشيعى الذين كانوا يتركزون فى عدة مناطق فى جنوبى مصر مثل أدفو وإسنا وأسوان وغيرها^(٣) وعلى هذا فقد بذل قسارى جهده فى تدعيم المذهب السنى، فأخذ يرعى المدارس السننية ويدعمها بالهبات المالية^(٤).

كذلك شرع الظاهر بيبرس فى بناء مدرسته الكبرى فى القاهرة سنة ٦٦٠هـ —

(١) العينى: عقد الجمان جـ ١ ص ٢٧١، ناصر الدين شاه: العقائد الشيعية ص ٩٦.

(٢) سعيد عاشور: الظاهر بيبرس ص ٤٤، أحمد مختار العبادى: فى التاريخ الأيوبى والمملوكى ص ١٦٧.

(٣) الأدفوى: الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ص ٣٣-٤٩.

(٤) العينى: عقد الجمان جـ ١ ص ٣٨٢، ستانلى بول: سيرة القاهرة ص ١٨٥.

وخصص لها أوقافاً عديدة، ولما تمّ الفراغ منها فى سنة ٦٦٢هـ بنى بجوارها مكتباً لتعليم أيتام المسلمين القرآن الكريم، وقرر لمن فيه الخبز كل يوم والكسوة فى فصلى الشتاء والصيف^(١).

واهتم ببيرس بإعادة الجامع الأزهر إلى ما كان عليه فى عهد الفاطميين، وكانت الصلاة قد توقفت فيه منذ أيام الناصر صلاح الدين الأيوبي^(٢) غير أن الدراسة بهذا الأثر الكبير تحولت فى أيام ببيرس عن المنهج الشيعى إلى المذهب السنى.

ب- ثورة البدو

عاد حصن الدين بن ثعلب زعيم قبائل البدو فى مصر إلى الثورة فى مطلع حكم الظاهر ببيرس سنة ٦٥٩هـ/سنة ١٢٦١م، غير أن السلطان الظاهر استطاع أن يوقع به، حتى شنقه بالإسكندرية^(٣).

وقد اثار ذلك استياء البدو بالصعيد، فثاروا ووثبوا على والى قوص الأمير عز الدين الهواش وقتلوه^(٤) فأرسل إليهم السلطان ببيرس جيشاً بقيادة الأمير عز الدين الأفرم فأوقع بهم وبدد شملهم وأخضعهم^(٥).

(١) المقرئى: الخطط جـ ٢ ص ٣٧٨ ص ٣٧٩، جمال سرور: دولة الظاهر ببيرس فى مصر ص ١٤٨.

(٢) ببيرس المنصورى: التحفة الملوكية ص ٦٠، النويرى: نهاية الأرب جـ ٣٠ ص ٩٣-٩٤، ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ ص ٣٤٠.

(٣) سعيد عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٣٢٤، أحمد مختار العبادى: فى التاريخ الأيوبي والمملوكى ص ١٢٧.

(٤) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٤٧١.

(٥) سعيد عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٣٢٥.

ج- تأمين حدود مصر الجنوبية

كان داود ملك الحبشة لما انتزع الحكم في بلاد النوبة من عمه شكندة، امتنع عن دفع الجزية السنوية المقررة لسلطان مصر، وتجاوز حدود مملكته مغيراً على بعض قرى الديار المصرية واستولى على كثير من الأسرى المسلمين بأسوان وعيذاب^(١). وقد انتهز بيبرس هذه الفرصة ليثار من أهالي بلاد النوبة الذين كانت غزواتهم لا تنقطع عن صعيد مصر فخرجت حملة مملوكية إلى بلاد النوبة سنة ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م ووصلت إلى دنقلة حيث أنزلت بجيش النوبة هزيمة منكرة^(٢).

وبعد إعادة الملك المخلوع شكندة عرض أمراء المماليك على أهالي بلاد النوبة الإسلام أو الجزية أو القتل، فاخترأوا الجزية، وهكذا خضعت النوبة تماماً للنفوذ الإسلامي في أيام الظاهر بيبرس^(٣).

ثانياً: في الخارج

وقد تركزت معظم هذه الصعوبات في منطقة بلاد الشام وما حولها، وهي منطقة أحاط بها الأعداء من جهات عدة، ففي الغرب وعلى امتداد الساحل يوجد الصليبيون الذين تمتد مناطق نفوذهم من أنطاكية في الشمال حتى عكا وما يليها من المدن في اتجاه الجنوب، وعلى مقربة من الصليبيين يربض الشيعة الإسماعيلية في قلاعهم الحصينة، وفي الشرق فيما يلي نهر الفرات يقبع العدو الأكبر وهم المغول الوثنيون الذين ذاقوا مرارة الهزيمة في عين جالوت لأول مرة في تاريخ انتصاراتهم الحافل، فباتوا موبتورين يترقبون فرصة الثأر القريب، وفي الشمال تقع مملكة أرمينيا المسيحية وهي حليف راسخ للمغول من جهة، ومناصر مؤازر للصليبيين في الشام من جهة

(١) جمال سرور: دولة الظاهر بيبرس في مصر.

(٢) مفضل ابن أبي الفضائل: النهج السديد ص ٣٣٤، ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ ص ٣٣٥.

(٣) جمال سرور: دولة الظاهر بيبرس في مصر ص ١١٤.

أخرى. كذلك كان على بيبرس أن يواجه تلك المتاعب التي أثارها بعض كبار أمراء المماليك المناوئين له في الشام، كما كان عليه أن يتعامل مع بقايا الحكام الأيوبيين في الكرك وحمص وحماة بذكاء وحذر شديدين.

ومما زاد في خطورة هذه الصعاب أنها جاءت في أغلبها متزامنة في وقت واحد، كما أن بعض هذه القوى التي كان على الظاهر بيبرس أن يصارعها دخلت في تحالف مكين مع بعضها الآخر، ومن ذلك التحالف بين الصليبيين والمغول والذي كلن يظهر في تبادل الهدايا والسفارات بين الطرفين، ثم دور مملكة أرمينيا الذي سبق الإشارة إليه.

وقد أثبت الظاهر بيبرس كفاءة عسكرية رائعة، وبراعة سياسية فائقة في مواجهة هذه القوى مجتمعة، فأعلى بذلك من قدرة مصر وزاد من مكانتها في وقت فقدت فيه كل القوى الإسلامية الموجودة في المنطقة آنذاك قدرتها على المواجهة أو الصمود في وجه الأخطار الخارجية المحدقة بالمسلمين.

وسنكتفي بالإشارة هنا إلى أهم هذه الأخطار وأبعدها أثراً على الساحتين العسكرية والسياسية.

أ- الصليبيون

لما كان بيبرس مدركاً تماماً للطبيعة العسكرية التي نشأت عليها دولة المماليك في مصر، وموقناً لما يجول بنفوس كبار أمراء المماليك من تطلع إلى السلطة والنفوذ، وراغباً في إشعار المسلمين بأن حكمه ملاذ لبلادهم وأمن من سطوة غيرهم من المعتدين، فقد استفاد بذكاء من انشغال مغول إيران بالصراع المرير الذي نشب بينهم وبين بنى جلدتهم من مغول القبجاق في الفترة الأخيرة من حياة هولاكو التي انتهت في

ربيع الآخر سنة ٦٦٣هـ سنة ١٢٦٥م (١).

وعلى هذا فقد توجه بجيشه إلى الشام صوب معاقل الصليبيين، وشرع فى حصار قيسارية جنوبى عكا فى مطلع شهر جمادى الأولى سنة ٦٦٣هـ، فسقطت المدينة فى يده بعد هجوم خمسة أيام، وهدمت أسوارها رغم تحصينات لويس التاسع لها، ولم يكن بيبرس يشجع الجنود فى أثناء ذلك ببسالته المعهودة فى خوض غمار الحرب فحسب بل كان يشاركهم أيضاً فى هدم الأسوار بنفسه (٢).

وفى رجب من نفس السنة هبط الظاهر بيبرس بجيشه جنوباً فانقض على قلعة أرسوف البحرية، وكان الحماس الدينى بالغاً أشده عند المسلمين حتى إن الفقراء والمتصوفة بل والنساء أيضاً تجمعوا لحفر الخنادق تحت الأرض، فلما سقطت القلعة أكره السلطان المدافعين عنها من الصليبيين على العمل فى تخريبها بأيديهم، ثم أخذهم بمنائم حرب ليزين بهم موكبه فى أثناء رجوعه إلى القاهرة، فساروا وصلبانهم مكسوة وأعلامهم منكسة، وأما السلطان فقد أجزل العطاء لكبار أمراء جيشه فأقطعهم القطائع من أرض فلسطين التى انتزعها من الصليبيين (٣).

وفى العام التالى شدد بيبرس الحصار على قلعة صفد الصليبية معقل الفرسان الداوية الواقعة على جبل خلف بحيرة طبرية، وكان يشتغل بنفسه فى ضرب المدينة ويبذل قصارى جهده فى العناية بالمرضى والجرحى من المسلمين، وتمكن جند السلطان من الاستيلاء على القلعة بعد ثلاثة أسابيع، حيث جرى إعدام الحامية من

(١) ابن القوطى: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة ص ٣٥٣، عباس العزاوى: تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٢٤٩.

(٢) وليم موير: تاريخ دولة المماليك فى مصر ص ٤٥، جمال سرور: دولة الظاهر بيبرس فى مصر ص ٧٠.

(٣) العينى: عقد الجمان ج ١ ص ٣٩٦-٤٥ ص ٤٦، ستيفن رنسيمن: تاريخ الحرب الصليبية ج ٣ ص ٥٤٦.

الدأوية بسبب ارتكابهم الكثير من الفظائع والمذابح ضد المسلمين^(١). ولم يكد الظاهر ببيرس يعود إلى القاهرة في أخريات سنة ٢٦٦م سنة ٦٢٤هـ حتى سارح بعد أربعة شهور فقط إلى مغادرتها عائداً إلى جبهة الشام، فما أن وصل إلى غزة حتى ولفاه رسل الصليبيين بها ومعهم الكثير من الهدايا، وعدد من أسرى المسلمين، وبذلوا كثيراً من الجهد في محاولة إثنائه عن عزمه في مواصلة الحرب ضد المسلمين^(٢).

ثم توجه السلطان إلى دمشق، ومنها سار بجيشه إلى صفد لتقوية دفاعاتها، ومن هناك فكر في مهاجمة عكا التي كانت تشتهر بحصونها المنيعة وإمداداتها التي توافيها من أوربا عبر البحر وجزيرة قبرص، إلا أنه عدل إلى حين عن الهجوم عليها، وعقد عدة معاهدات مع أميري صور وبيروت ومع فرسان الاستبارية في حصن الأكراد وفي حصن المرقب^(٣).

وفي سنة ٦٦٦هـ/سنة ١٢٦٨م شرع ببيرس في الاستيلاء على مدينة باقلا، فنجح في ذلك بعد أن باغت القلعة على حين غرة، ثم استولى على حصن "الشقيف"^(٤) واستدار إلى الأمير بوهمند صاحب طرابلس وأنطاكية ورأى أن يعاقبه لمساعدته المغول في أثناء هجومهم على سورية واجترأه على مهاجمة حمص، فخرّب كل الأراضي الواقعة حول طرابلس، ثم تقدم بجيش كبير صوب أنطاكية فأسر حاكم المدينة الصليبي ثم هاجم أسوارها واخترقها ووقع جميع من فيها أسرى، وهناك أرسل

(١) المقريري: السلوك ج١ ق٢ ص ٥٤٧، ولیم موبر: تاريخ دولة المماليك في مصر ص ٤٧.

(٢) ستيقن رسيهان: تاريخ الحروب الصليبية ج٣ ص ٥٥١، قاسم عيده قاسم: الأيوبيون والمماليك ص ١٦١.

(٣) القلقشندي: صبيح الأعشى ج١٤ ص ٣١.

(٤) مفصل بن أبي الفضائل: النهج السديد ص ١٦٤، العيني: عقد الجمان ج٢ ص ٢١.

بوزيس، رسالة تهكم إلى بوهيموند المقيم آنذاك في طرابلس يشاطره الحزن والأسى على مصير حاضرة مملكة الصليبيين، عبارات يتم عن التقريع والسخرية^(١).

وأنت هذه الانتصارات إلى نشر الفرع بين المعقل الصليبية التي بدأت تسترقب هجوم الظاهر بوزيس عليها في أي وقت، ومن ثم فقد سارع حاكم عكا الحصينة بطلب عقد هدنة مع السلطان مقابل التنازل عن نصف أملاكه في عكا^(٢).

أما الظاهر بوزيس فإنه توجه إلى مهاجمة إمارة طرابلس الصليبية غير أنه عاد إلى القاهرة لما تمت إلى أسماعه الأنباء عن حملة صليبية مرتقبة من قبل ملك فرنسا^(٣).

وأما إطمأن الظاهر بوزيس إلى عدم صدق الأخبار السابقة خرج من القاهرة معاًوذاً الهجوم على طرابلس سنة ٦٦٩هـ/سنة ١٢٧١م وفي هذه الأثناء اطرده التدعيم الأوربي للمدينة عكا، فوصل إليها الأمير الإنجليزي إدوارد، فقبل الظاهر بوزيس التفاوض مع الأمير بوهيموند السادس أمير طرابلس^(٤).

وفي وسط هذه الأحداث جهز بوزيس أسطولاً لغزو جزيرة قبرص سنة ٦٦٨هـ/سنة ١٢٧٠م التي كانت قد ساعدت عكا مساعدة جديدة، غير أن عاصفة هبت عليه، فحطمته هرباً من الجزيرة^(٥) فشرع الظاهر في إنشاء أسطول جديد^(٦).

(١) المقرئى: السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٥٦٨، علشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ١٩٩.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص ٣٣١، المقرئى: السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٥٧٠.

(٣) مبعوث علشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٢٠٠، قاسم عبده قاسم: الأيوبيون والمماليك ص ١٦٣.

(٤) النويرى: نهاية الأرب جـ ٣٠ ص ٢٢٢، ستيفن رنسيمن: تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٥٧٤.

(٥) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص ٣٨٧، وإيم موير: تاريخ دولة المماليك في مصر ص ٥٠.

(٦) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ق ٢ ص ٦١٥.

وقد أدى عدم انقطاع المدد الجديد من أوروبا والخوف مما عساه يحدث في الشرق ببيبرس إلى أن يعقد هدنة لمدة عشر سنوات مع مدينتي صور وعكا، وعقب ذلك بقليل مات بوهيمند السادس أمير طرابلس التي دخلت أيضاً في مهادنة مع بيبرس سنة ٦٧٣هـ/سنة ١٢٧٥م، فلم يبق للصليبيين من البقاع بعد هذه المدن الثلاث إلا شيء قليل^(١).

ب- المغول

اضطر السلطان بيبرس منذ اعتلائه عرش مصر إلى التعامل مع مغول هولاكو الذي أصبح حاكماً على إيران والعراق معاً، فهم - كما سبق القول - لم ينسوا عار الهزيمة في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ، ولم ينسوا الظاهر بيبرس بالذات فهو الذي دحر المقدمة المغولية التي وصلت إلى غزة بقيادة بيدرا نائب كيتوبوقا قائد المغول، وهو أي بيبرس أحد أبرز القادة المسلمين الذين خاضوا بشجاعة معركة عين جالوت وكان بحق من أكبر مفاتيح النصر فيها، وهو الذي طارد فلول المغول حتى حمص ودحرهم وشتت شملهم بعد عين جالوت مباشرة، وهو الآن قد صار ملكاً على مصر التي أوصى الخان الأعظم منكوقان أخاه هولاكو بالاستيلاء عليها.

وطوال الفترة التي أمضاها هولاكو في عاصمته مراغة بعد عودته من حلب سنة ٦٥٨هـ قبل موقعة عين جالوت فإننا لا نكاد نسمع عن إعداده جيشاً للثأر من المماليك وبخاصة بيبرس، ذلك أنه كان يطمع في أن يصبح خاقاناً أعظم مكان أخيه منكوقان الذي توفي سنة ٦٥٧هـ غير أن المنصب انتقل إلى أخيهما قوبيلاي-آن، ف شعر هولاكو بإحباط شديد، وفترت همته إلى حين وانكب على تدبير شئون مملكته الشاسعة التي أصبحت تمتد ما بين نهر جيحون شرقاً حتى الفرات غرباً.

(١) وليم موبر: تاريخ دولة المماليك في مصر ص ٥٠، جمال سرور: دولة الظاهر بيبرس ص ٨٦.

وكان بيبرس قد استقبل في ذلك الوقت سفارة من لدن بركة خان زعيم مغول القبجاق - وكان قد أسلم وتبعه غالبية قومه إلى الإسلام - يخبره فيها أنه قد انتقم مما فعله هولاءكو بالمسلمين في بغداد وبخاصة اجتراؤه على قتل الخليفة المستعصم بالله، ويعرفه بتفاصيل المعركة التي وقعت عند حدود نهر ترك شمالي إيران سنة ٦٦١هـ، وكيف هُزم جيش هولاءكو هناك على أيدي أبناء جلادته من مسلمي المغول في القبجاق. ورحب بيبرس بهذا النصر ترحيباً كبيراً وشرع يوطد علاقته مع بركة خان ويعاهده على أن يضغط هو بشدة على مغول إيران عبر نهر الفرات حتى يَضْعُف جيش هولاءكو وينقسم لمحاربة الحليفين المسلمين في وقت واحد، فَيْتَشَتَّ ويعجز.

وقد بالغ بعض المؤرخين المحدثين^(١) عندما ظنَّ أن بيبرس قد أمعن في توطيد أركان علاقته مع بركة خان المغولي حتى إنه قد تزوج ابنته، وليس هذا صحيحاً، فبيبرس تزوج ابنة بركة خان الخوارزمي وأنجب منها ابنه الأكبر السعيد محمد بركة خان الذي تولى العرش من بعده^(٢).

أيا كان الأمر فإن هذه العلاقة الوطيدة بين بيبرس ومغول القبجاق قد استمرت متينة الأواصر حتى بعد وفاة بركة خان نفسه سنة ٦٦٥هـ، ومن ثمة استمر هذا التحالف أمراً مزعجاً لمغول إيران فترة طويلة من الوقت.

وكان أبا قاخان (٦٦٤-٦٨٠هـ) لما تولى الحكم مكان أبيه هولاءكو قد انشغل في حروب طاحنة ضد مغول القبجاق سنة ٦٦٤هـ^(٣) وضد أبناء عمومته الآخرين في بلاد ما وراء النهر في الشرق في الفترة ما بين عامي ٦٦٦ : ٦٦٨هـ حتى تمكن من هزيمتهم عند مدينة هراة في خراسان^(٤) بل إنه عاود الهجوم شرقاً مرة أخرى فاجتاز

(١) جمال سرور: دولة الظاهر بيبرس ص ١٠٦، قاسم عبده قاسم: الأيوبيون والمماليك ص ١٥٧.
(٢) ابن أبيك الدوادري: كنز الدرر ج ٨ ص ٢١٩، المقرئ: السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٤١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٦١.

(٣) البناكتي: روضة أولى الألباب ص ٤٢٧، اليونيني: ذيل مرآة الزمان ج ٢ ص ٣٦٣.

(٤) رشيد الدين: جامع التواريخ م ٢ ج ٢ ص ٤٥، شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي ص ٥٧.

بجيشه نهر جيحون حيث قام جنوده بتدمير مدينة بخارى سنة ٦٧١هـ (١).
ولم يتوان الظاهر بيبرس عن الاستفادة من انشغال آباقا بهذه الحروب فسارع
إلى تدعيم سلطانه على الشام فضغط بشدة على الإمارات الصليبية على ساحل البحر
المتوسط (٢) وشرع أيضاً فى انتزاع قلاع الإسماعيلية تدريجياً حتى انصاعوا له (٣) كما
اتجه جيشه شمالاً إلى مملكة أرمينيا حيث هاجم الأرمن حلفاء المغول بعنف وقهرهم
وأسر ابن ملكهم فى ذى القعدة سنة ٦٦٤هـ / أغسطس سنة ١٢٦٦م (٤).

وفشلت محاولات آباقا فى إقناع الغرب المسيحي بفكرة التحالف المشترك ضد
الظاهر بيبرس وكان آباقا قد أرسل سفارة إلى البابا كليمنت الرابع سنة ٦٦٥هـ / سنة
١٢٦٧، وإلى الملك جيمس الأول سنة ٦٦٧هـ / سنة ١٢٦٩م وإلى مجمع ليون سنة
٦٧٢هـ / ١٢٧٤م (٥) ويبدو أن هؤلاء جميعاً قد أفرغتهم انتصارات الظاهر بيبرس على
جبهات عديدة فأدركوا عدم جدوى التحالف مع آباقا، كما كانوا مشغولين بقضاياهم
الداخلية لذلك ذهبت محاولات آباقا للتحالف مع الصليبيين فى الشام أدراج الرياح، على
حين أخذ الظاهر بيبرس ينتزع معاقلهم هناك واحداً تلو الآخر، ومن ثم لم تفلح
المناوشات التى قامت بها بعض الفرق المغولية فى الحصول على أى نتيجة ملموسة
وكانت تلك قد هاجمت قلعة البيرة الواقعة على نهر الفرات سنة ٦٦٣هـ سنة ١٢٦٥م
وفرت عندما علمت بقدوم السلطان (٦) وهاجمت شمالى الشام سنة ٦٦٧هـ سنة

-
- (١) فامبرى: تاريخ بخارى ص ١٩٦، عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى إيران ص ١٥٦.
(٢) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت ص ٩٨، ابن سباط: صدق الأخبار ج ١ ص ٤١٠.
(٣) بيبرس المنصورى: مختار الأخبار ص ٣٣.
(٤) استاريجان: تاريخ الأمة الأرمينية ص ٢٣٠، انطوان خانجى: مختصر تواريخ الأرمن ص ٢٤٠.
(٥) جمال سرور: دولة الظاهر بيبرس فى مصر ص ٩٥، قاسم عبده قاسم: الأيوبيون والمماليك
ص ٤٦٦.
(٦) المقرئى: السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٧٤.

٦٦٩هـ وعادت أدرجها بسرعة بعد الهزيمة عند حران^(١).

كذلك لم تفلح محاولات الصلح التي جرت بين الطرفين في إزالة العداء المستحكم بينهما، وتجلّى ذلك بوضوح في الرسالة التي بعث بها آباقا إلى الظاهر بيبرس سنة ٦٦٧هـ في دمشق والتي ورد فيها إن الملك آباقا بن هولاكو لما خرج من المشرق، تملك جميع العالم ومن خالفه قتل، فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلص منا فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحاً، وأنت مملوك أبعث في سيواس فكيف تشاقق ملوك الأرض وأولاد ملوكها^(٢).

وتعكس هذه الرسالة مدى حنق آباقا الذي تخلى عن الأدب في مخاطبة الملوك الآخرين فقد عير الظاهر بيبرس بأصله المجهول وتعالى عليه بانتسابه هو إلى سلالة ملكية واضحة النسب، على أن هذه الرسالة لم تخرج في الحقيقة عن كونها محاولة للتخويف أو الإرهاب من جانب آباقا الذي كان مشغولاً آنذاك بمحاربة بني جلادته من مغول ما وراء النهر، ولقد قابل الظاهر بيبرس هذا التطاول بهدوء تام، ولم يكلف نفسه أو ديوانه عبء كتابة رسالة خطية وإنما قال لرسول آباقا مشافهة "اعلم أنى وراءه بالمطالبة، حتى أنتزع من يده جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض^(٣).

وأخيراً ظهر العداء الحقيقي الذي كان يكنه آباقا للمسلمين ولسلاطنتهم بيبرس عقب هزيمة جنده في موقعة أبلستين بصحرَاء الأناضول في ذى القعدة سنة ٦٧٥هـ/سنة ١٢٧٧م على يد السلطان الظاهر بيبرس الذي دخل عقب انتصاره على المغول وحلفائهم من الأرمن والروم إلى مدينة قيصرية، وضرب السكة باسمه وجعل

(١) سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٢٠٢.

(٢) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ج ٢ ص ٤٠٧، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٤٥.

(٣) العيني: عقد الجمان ج ٢ ص ٤٣، ابن سباط: صدق الأخبار ج ١ ص ٤٢٧.

الخطبة باسمه أيضاً، وكانتا من قبل باسم آباقا خان الذى اتجه بمجرد علمه بذلك إلى هناك فى صفر سنة ٦٧٦هـ / يونية سنة ١٢٧٧م، ورأى بأمر عينيه صرعى المغول مكسدين فوق بعضهم، ولم يجد من قتلى الروم إلا القليل فلم يتمالك نفسه وبكى ثم أصدر أمراً إلى جنوده بمباشرة القتل العام والنهب، فكان من جملة ما نهبوا نصف مدينة سيواس^(١) وبلغ عدد القتلى فى هذه الفعلة البشعة مائتى ألف وقيل خمسمائة ألف من فلاح إلى عامل إلى جندي من قيصرية إلى أرزن الروم وما بينهما^(٢).

ج- الإسماعيلية

أسفر سقوط القلاع الرئيسية للإسماعيلية فى إيران، واستسلام زعيمهم ركن الدين خورشاه هولأكو عن انهيار كبير للكيان الإسماعيلي الذى ظل يؤرق السلاجقة والخوارزميين طويلاً؛ وكان هولأكو يدرك تماماً أنه ما تزال هناك قلاع أخرى عديدة للإسماعيلية فى الشام يمكن استخلاصها بتوجيه من خورشاه الذى كان يملك من النفوذ ما يجعله مسيطراً عليها من الناحيتين العقائدية والسياسية ولهذا أبقى هولأكو على حياة خورشاه بعد استسلامه، ووافق على تزويجه من فتاة مغولية أعجب بها.

ولم يخيب خورشاه ظنَّ سيده الجديد هولأكو فأرسل عدة أشخاص من خواصه مع رسل هولأكو إلى قلاع الإسماعيلية فى الشام لدعوة الناس هناك إلى التسليم لولاة الخان المغولي^(٣).

وقد رفض الداعى الإسماعيلي أبو المعالى رضى الدين أن يسلم قلاع

(١) ابن البيبي: تاريخ سلاجقة الروم ص ٣٣٠ - ص ٣٣١، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ٥٠٢.

(٢) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر ص ١٨٢، ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٧٢.

(٣) رشيد الدين: جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٥٧، ميرخواند: روضة الصفا ج ٥ ص ٢٥٩.

الإسماعيلية الثمانية في الشام إلى المغول، فخرج بذلك على أمر إمامه ركن الدين خورشاه، وأراد المقاومة لكنه اضطر أمام انتصارات المغول في الشام - قبل موقعة عين جالوت - إلى تسليم أربع من هذه القلاع لهم على حين ظلت الأربع الأخرى في أيدي الإسماعيلية، فلما انتصر السلطان قطز على المغول في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ انتهز الداعي أبو المعالي هذه الفرصة واسترد القلاع التي كانت قد آلت إلى المغول^(١).

ويرى مؤرخ محدث^(٢) "أن إسماعيلية الشام اشتركوا مع المماليك في عين جالوت وغيرها من المواقع" وهذا الرأي لا يستند إلى أي مصدر تاريخي معروف، وفي الجانب العملي لم يكن المماليك وهم سنيون متشددون كأسلافهم الأيوبيين ليسمحوا للشيعاء الإسماعيلية بالمشاركة معهم في أي تحالف عسكري وبخاصة في معركة مصيرية كعين جالوت، كذلك لم يكن الإسماعيلية في الشام في هذا الوقت يملكون جيوشاً نظامية يشاركون بها في الحروب المفتوحة، فمن المعروف أن خبرتهم الواسعة كانت تتوقف بهم عند تنفيذ عمليات الاغتيال الفردي.

وكان بيبرس لما تسلطن في ١٧ ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ وجلس في إيوان القلعة قد كتب بذلك إلى الملوك في الشام كما كتب إلى الإسماعيلية يعرفهم ما جرى أي قتل الملك المظفر قطز^(٣) لكن الإسماعيلية لم يحسنوا تقدير الموقف، ولم يترثوا فما إن وصل السلطان بيبرس إلى دمشق سنة ٦٥٩هـ حتى جاءه رسول الإسماعيلية حاملاً إليه هدية ورسالة مضمونها التهديد والوعيد وطلب ما كان لهم من الإقطاعات والرسوم في أيام الملك الناصر الأيوبي سلطان الشام، فأجاب الظاهر بيبرس إلى ذلك، وشرع

(١) محمد كرد علي: خطط الشام جـ ٢ ص ١١٩، محمد حسين كامل: طائفة الإسماعيلية ص ١٠٧.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام جـ ٤ ص ٢٧٧.

(٣) اليونيني: ذيل مرآة الزمان جـ ٢٢ ص ١١٤، ابن أبيك الدواداري: كنز الدرر جـ ٨ ص ٨٤ -

ص ٨٥.

فى استعمال الخيلة عليهم.
ومما زاد الأمر تعقيداً أنه فى شهر رجب سنة ٦٦٠هـ خرج جماعة من
الإسماعيلية على الأمير علاء الدين ايدكين البندقدارى وهو راكب على جسر
العاصى على نهر حماة وجرحوه، فقبض على جماعة منهم فقتلهم وحبس جماعة
أخرى وأخذ أموالهم، فلما وصل الخبر إلى الملك الظاهر قبض على من بمصر من
نوابهم، ورتب للأمير علاء الدين ولنفسه حرساً خاصاً للحماية من الاغتيال، فوصلت
كتب زعيم الإسماعيلية إليه تستعطفه وتسترضيه فأظهر ذلك^(١).

وأمام الضغط الذى مارسه الظاهر بيبرس على الإسماعيلية الذين لم ينسوا قط
عداءهم لأهل السنة وهم غالبية أهل الشام، ازداد التقارب بين هؤلاء الإسماعيلية
والصليبيين فى الشام، وكانوا يرون فى الإسماعيلية قوة يمكن الاعتماد عليها فى الحد
من خطر المماليك، لذا دأبت القوى الصليبية فى بلاد الشام على إرسال الهدايا إلى
الإسماعيلية اتقاءً لشركهم من ناحية وطمعاً فى تأييدهم من ناحية أخرى.

وقد رأى الظاهر بيبرس أن يتبع سياسة حكيمة فى تعامله مع الإسماعيلية، فبدأ
بفرض ضرائب ثقيلة على الهدايا التى اعتاد الصليبيون وغيرهم على إرسالها إلى
الإسماعيلية، فأفسد بذلك ناموس الإسماعيلية فى هذا الصدد، وأصبح مقدمو الهدايا فى
حيرة من أمرهم، وصارت يد بيبرس هى الأعلى^(٢).

وفى شوال سنة ٦٦٣هـ استرجع الظاهر بيبرس من الإسماعيلية حصن القلعة
وهو من أهم قلاعهم الثمانية فى الشام^(٣) فكانت تلك ضربة قاسية موجهة إلى نفوذهم

(١) اليونانى: ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ١٥٤-١٥٥.

(٢) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ق ٢ ص ٥٤٣، العينى: عقد الجمان جـ ١
ص ٤٢٧.

(٣) بيبرس المنصورى: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة جـ ٩ ص ١١٨.

فى الشام كله، حتى إن الضعف شرع يعتريهم، فاضطروا إلى حماية أنفسهم بدفع الجزية إلى الصليبيين وبخاصة فرسان الاسبتارية فى حصن الأكراد (غربى حمص) فانتهر الظاهر بيبرس هذه الفرصة واشترط فى معاهدة الصلح التى عقدها مع الاسبتارية سنة ٦٦٥هـ/سنة ١٢٦٧م الامتناع عن أخذ الجزية من مختلف مدن المسلمين وكذلك الإسماعيلية^(١).

ولم يجد الإسماعيلية أمام الحصار السياسى الذى أحاطهم به الظاهر بيبرس مناصباً من أن يرسلوا إليه مبعوثين يعرضون عليه دفع الجزية التى كانوا يؤدونها من قبل إلى الصليبيين^(٢) فجاء ذلك إعلاناً صريحاً بدخولهم تحت التبعية له.

وسلك الظاهر بيبرس منهجاً مختلفاً مع الإسماعيلية بالشام بعد أن أحكم سيطرته على قلاعهم جميعاً، فهو لم يفعل بهم كما فعل هولاءكو بإخوانهم فى إسران^(٣) الذين تعرضوا للقتل الجماعى بعد نهب ممتلكاتهم وتدمير قلاعهم فى قوهستان وآلموت، ففى الناحية الدينية أمر بيبرس أن تقام المساجد الجامعة فى جميع القلاع الإسماعيلية لتؤدى فيها صلوات الجمع والجماعات ويترضى عن الصحابة بها، كما أمر بإزالة المنكرات وإظهار شرائع الإسلام وشعائره^(٤).

وفى الناحية السياسية لم يقتصر الأمر على حبس بعض زعمائهم، إذ إن السلطان كان قد عفا عن البعض الآخر ومنحهم إقطاعات محدودة بمصر ليكونوا دوماً تحت بصره^(٥) كما رأى أن يستفيد من فدائى الإسماعيلية فى توجيه ضربات موجعة

(١) ابن شداد: سيرة الظاهر بيبرس ص ٤٤، ولیم مویر: تاریخ دولة المماليك فى مصر ص ٥٠.

(٢) النويرى: نهاية الأرب ج ٣٠ ص ١٣٤، برنارد لويس: الحشاشون ص ٢١٨.

(٣) بروكلمان: تاریخ الشعوب الإسلامية ص ٣٦٦، محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية ص ١٠٨.

(٤) ابن شاکر الکتبى: فوات الوفيات والذیل علیها ج ١ ص ٢٤٤، المقرئى: الملوك ج ١ ق ٢ ص ٦٠٨.

(٥) ولیم مویر: تاریخ دولة المماليك فى مصر ص ٥٠، سعید عاشور: الظاهر بيبرس ص ٨٣.

إلى الصليبيين في الشام ومن ذلك تكليفهم باغتيال فيليب مونتقورت صاحب صور في المحرم سنة ٦٦٩هـ/أغسطس سنة ١٢٧٠م فجاءت وفاته ضربة خطيرة للوجود الصليبي في الشرق لأنه كان من أهم رجالاتهم آنذاك^(١) كما قاموا باغتيال بارنولوميو صاحب مرقية - قلعة بساحل الشام في اتجاه حمص - في سنة ٦٧٠هـ، وكان قد توجه إلى أبا قحان بن هولاكو في إيران مستصرخاً إياه ضد الظاهر بيبرس، فسير وراءه بعض الإسماعيلية فقفزوا عليه وقتلوه^(٢).

كذلك حاولوا اغتيال الأمير الإنجليزي إدوارد في ذي الحجة سنة ٦٧٠هـ/يونية سنة ١٢٧٢م ومع أن جرحه لم يكن قاتلاً إلا أنه ظل يعاني منه بضعة أشهر، فبادر الظاهر بيبرس بتبرئة نفسه بأن بعث إلى الأمير إدوارد بالتهنئة على نجاته^(٣).

هكذا رأينا كيف تعامل السلطان بيبرس مع كل هذه القوى مجتمعة فكان عسكرياً فذا وسياسياً بارعاً، وليس أدل على ذلك من أنه قد تحالف مع قوى أخرى عديدة غير تلك التي كان يصارعها حتى يضمن وقوفها على الحياد أو مناصرتها له إذا لزم الأمر ومن ذلك:

أ- التحالف مع ملك صقلية ونابولي منفرد بن فردريك الثاني، فقد أرسل إليه سفارة كان على رأسها المؤرخ ابن واصل وكان ذلك في رمضان سنة ٦٥٩هـ^(٤).

ب- التحالف مع ميخائيل الثامن باليولوج امبراطور الدولة البيزنطية وأرسل إليه في سنة ٦٦٠هـ سفارة على رأسها الأمير فارس الدين أقوش المسعودي،

(١) ستيفن رنسيمن: تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٥٧٠، السيد العريني: المغول ص ٢٩٧.
(٢) المقرئ: السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٠٠، القزاز: الحياة السياسية في العراق في عهد السليمانية ص ٣٩٩.

(٣) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص ٤٠١، العيني: عقد الجمان ج ٢ ص ٩٤.
(٤) بيبرس المنصورى: زبدة الفكرة ج ٩ ص ٣٣١.

وضمت عدداً من الأساقفة الأرثوذكس^(١).

ج- التحالف مع ملك إشبيلية وقشتالة الفونسو العاشر وتبادل الهدايا معه^(٢).

د- التحالف مع السلطان عز الدين كيكائوس سلطان سلاجقة الروم، ووعدته بالمناصرة ضد أخيه قلعج أرسلان الذي ينازعه على العرش^(٣).

كذلك لم يغفل الظاهر بيبرس واجبه نحو توفير الأمن لمملكته الواسعة التي كانت تمتد من الفرات إلى النوبة، فعمل على العناية بالبريد^(٤)، وإقامة أبراج المراقبة في الداخل أو على الساحل، وتجديد بناء القلاع على الحدود الفراتية وبخاصة البيرة والرحبة، وتجديد القبائل البدوية على أطراف العراق ناحية نهر دجلة^(٥) وردم مصب نهر النيل عند دمياط وتضييقه بالحجارة ووضع سلسلة عظيمة لمنع دخول السفن الكبيرة بقصد الحماية من غارات الصليبيين^(٦).

كما اهتم الظاهر بيبرس أيضاً بتقوية الأسطول والجيش، وأشرف بنفسه على بناء سفنه وتجديد عمارتها بتوفير الأخشاب اللازمة من آسيا الصغرى، وكذلك اهتم السلطان بيبرس بشراء المماليك من بلاد القبجاق من بنى جنسه ليدعم سلطانه ونفوذه بهم^(٧).

وعلى الإجمال فإن عصره يعد بحق أزهى أوقات النصر والفخر في دولة المماليك كلها، وعند المسلمين جميعاً آنذاك.

(١) المقرئى: السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٥١٤، ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص ١٢٩.

(٢) جمال سرور: دولة الظاهر بيبرس في مصر ص ١١٢، قاسم عبده قاسم: الأيوبيون والمماليك ص ١٥٧.

(٣) ستيفن رنسيمن: تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٥٤٤.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٢١٢.

(٥) المقرئى: السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٤٧٦.

(٦) المقرئى: السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٤٤١.

(٧) المقرئى: الخطط جـ ٢ ص ٢١٣.

الخاتمة

رأينا كيف نشأت الدولة المملوكية فى ظروف غاية فى الصعوبة تمثلت فى حتمية التصدى لخطرین كبيرین أولهما الحملة الفرنسية التى قادها القديس لويس التاسع ملك فرنسا فى سنة ٦٤٧هـ انتقاماً من استعادة المسلمين بيت المقدس سنة ٦٤٢هـ. وثانيهما: الحملة المغولية التى خرجت من منغوليا سنة ٦٥٠هـ فاجتاحت قلاع الإسماعيلية فى آلموت ٦٥٤هـ والخلافة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦هـ، وانطلقت من ذلك إلى اجتياح بلاد الجزيرة ومدن الشام حلب، حمص، دمشق.

وكشفت الدولة إبان نشأتها عن طبيعة عسكرية حازمة عوضت بشكل واضح كل الفروق العسكرية التى كانت تجعل النصر فى صالح أعدائها وبخاصة المغول، فقد أظهر المماليك براعة جديدة فى القتال تمثلت فى مجاراة المغول فى سرعة الحركة والتفوق عليهم فيها، واعتمد المماليك على نظام التشكيلات العسكرية (الفرق) بدلاً من تقسيم الجيش فى أثناء الحرب إلى خمسة أقسام على النسق التقليدى [مقدمة - قلب - جناحين - مؤخرة]، واستخدم المماليك فى دقة بالغة أساليب متنوعة فى الانتشار والانسحاب وإعداد الكمائن وتنفيذها.

وأثبت المماليك شجاعة فائقة فى المواجهات العسكرية مع أعدائهم، وانقضت على أيديهم الأسطورة المغولية التى جئمت على صدور المسلمين طويلاً بأن المغول قوم لا يغالون، وجاء النصر فى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ وابلستين سنة ٦٧٥هـ تأكيداً لهذه الحقيقة.

ولم يتوقف المماليك عند المواجهة العسكرية مع الصليبيين والمغول بل نجحوا كذلك فى قمع ثورات البدو فى صعيد مصر وفى تأمين حدودها الجنوبية من خطر النوبة، وأرغموا الشيعة الإسماعيلية فى الشام على التخلي عن حصونهم المنيعه وإعلان الولاء لسلطان مصر المملوكى بيبرس.

واستفادت الدولة المملوكية الناشئة من خبرات الأيوبيين فى مجال إدارة الدولة،

فلم تغرر كثيراً من نظم هذه الإدارة، وانصبَّ التغيير على الأشخاص، وعدَّ ذلك أمراً خطيراً خصوصاً في مرحلة النشأة، ولم يمنع ذلك من زيادة الاهتمام ببعض الدواوين المهمة ومنها ديوان المظالم الذي يرتبط في الأغلب بمشاكل الرعية وقضاياها.

وكان السلاطين الأول الذين واكبوا نشأة الدولة على درجة عالية من الالتزام بالدين الإسلامي وتنفيذ تعاليمه وبخاصة قطز وبيبرس، أما على بن أيك فيمكن غض الطرف عنه وعن فترة حكمه، لقصر مدتها من جهة، ولصغر سنه من جهة، ولقيام المظفر قطز بنيابة السلطنة في هذه الفترة.

وقد أكد هؤلاء السلاطين وبخاصة بيبرس على إثبات شرعية حكمهم، ومن خلال ذلك جرى العمل على فرض نفوذ الدولة المملوكية الفتية على الأماكن المقدسة في الحجاز، وإحياء الخلافة العباسية من جديد في القاهرة حيث تلقب بيبرس بلقب قسيم أمير المؤمنين، فأصبح حكمه شرعياً، وأصبحت دولته أيضاً شرعية.

وعلى وجه العموم، فإن نشأة الدولة المملوكية في مصر في هذا التوقيت الحرج تعد - في تقديري - إنقاذاً عملياً خرج بالمسلمين من محنة قاسية كان يصعب عليهم - لولا المماليك - الخروج منها.

ثبت بأهم المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطات:

ابن حماد الموصلي: محمد بن أبي بكر بن علي (ت/ ٧٥٠هـ)

١- روضة الأعيان في أخبار مشاهير الزمان، مخطوط رقم ٢٦٦، بمعهد إحياء المخطوطات العربية، بالقاهرة.

الجنابي: مصطفى بن حسن بن سنان بن أحمد (ت/ ٩٩٩هـ)

٢- الحافل الوسيط والعيلم الزاخر المحيط في أحوال الأوائل والأواخر، مخطوط رقم ٢١٠ بمعهد إحياء المخطوطات العربية.

ثانياً: المصادر العربية:

ابن إياس: محمد بن أحمد (ت/ ٩٣٠هـ)

٣- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ١، نشر قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

بيبرس المنصوري: ركن الدين بن عبد الله الدوادري (ت/ ٧٢٥هـ)

٤- التحفة الملوكية في الدولة التركية، نشر الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٥- زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج ٩، المدينة المنورة، بدون تاريخ أو تحديد دار النشر، الطبعة الأولى.

٦- مختار الأخبار، نشر الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت/ ٨٧٤هـ)

٧- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، الجزء الرابع، نشر الهيئة العامة للكتاب، بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

٨- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، الجزءان السادس والسابع، نشر دار الكتب المصرية بالقاهرة (نسخة مصورة) الطبعة الأولى، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

ابن دقماق: صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيذر العللى (ت/٨٠٩هـ)
٩- الجواهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين، نشر دار عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

الديار بكرى: حسين بن محمد (ت/٩٩٠هـ)
١٠- تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس، المطبعة الوهبيية بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م.

الذهبي

١١- العبر فى خبر من غير، تحقيق الدكتور/صلاح الدين المنجد، نشر مطبعة حكومة الكويت، الطبعة الثانية (مصورة) ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

الرمزى م.م.

١٢- تليق الأخبار، وتليق الآثار فى وقائع فزان وبلغار وملوك التتار، المطبعة الكريمة فى بلدة (أورنبوغ) روسيا، الطبعة الأولى، ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م.

ابن الساعى: على بن أنجب بن عثمان بن عبد الله (ت/٦٧٤هـ)

١٣- تاريخ الخلفاء العباسيين، نشر مكتبة الآداب بالقاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

ابن سباط: حمزة بن أحمد بن عمر (ت/٩٢٦هـ)

١٤- صدق الأخبار، المعروف بتاريخ ابن سباط، طرابلس، لبنان ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

السبكى: تاج الدين عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى (ت/٧٧١هـ)

١٥- طبقات الشافعية الكبرى، نشر دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى.

ابن شاکر الکتبی: محمد بن شاکر بن أحمد بن عبد الرحمن (ت/۷۶۴هـ)
۱۶- فوات الوفیات والذیل علیها، نشر دار صادر بیروت، الطبعة الأولى،
۱۳۹۳هـ/۱۹۷۳م.

أبو شامة: شهاب الدین محمد بن إسماعیل (ت/۶۶۵هـ)
۱۷- الذیل علی الروضتین، نشر دار الجیل، بیروت، الطبعة الثانية،
۱۳۹۴هـ/۱۹۷۴م.

ابن شداد: عز الدین محمد بن علی بن إبراهيم (ت/۶۸۴هـ)
۱۸- تاریخ الظاهر ببیرس، نشر دار فرانز شتاينر، ألمانياء، الطبعة الأولى
۱۴۰۳هـ/۱۹۸۳م.

الصفدي: صلاح الدین خليل بن أيبك (ت/۷۶۴هـ)
۱۹- الوافی بالوفیات، دار نشر فرانز شتاينر، ألمانياء، الطبعة الأولى
۱۳۹۰هـ/۱۹۷۰م.

ابن طباطبا: محمد بن علی، المعروف بابن الطقطقي (ت/۷۰۹هـ)
۲۰- الفخری فی الآداب السلطانية والدول الإسلامية، مطبعة علی صبيح، الأزهر،
بالقاهرة، الطبعة الأولى ۱۳۸۲هـ/۱۹۶۲م.

ابن عبد الظاهر: محيى الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين (ت/۶۹۲هـ)
۲۱- الروض الزاهر فی سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر،
الرياض، الطبعة الأولى ۱۳۹۶هـ/۱۹۷۶م.

العيني: بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد (ت/۸۵۵هـ)
۲۲- عقد الجمان فی تاريخ أهل الزمان، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب،
بالقاهرة، الطبعة الأولى، ۱۴۰۷هـ/۱۹۸۷م.

أبو الفداء: عماد الدين إسماعيل بن نور الدين أبي الحسن (ت/٧٣٢هـ)

٢٣- المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسنية المصرية بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م، وأعادت مكتبة المتنبى بالقاهرة نشر هذه الطبعة كما هي دون تحقيق ودون تاريخ.

ابن فهد: عمر بن محمد بن محمد (ت/٨٨٥هـ)

٢٤- إتحاف الوري بأخبار أم القرى، نشر مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

ابن الفوطى: كمال الدين عبد الرزاق بن تاج الدين أحمد (ت/٧٢٣هـ)

٢٥- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، مطبعة الفرات، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٥١هـ/١٩٣٢م.

ابن قزاوغل: شمس الدين أبو المظفر يوسف (ت/٦٥٤هـ)

٢٦- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ج ٨ ق ٢، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند، الطبعة الأولى، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.

ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت/٧٧٤هـ)

٢٧- البداية والنهاية في التاريخ، مطبعة السعادة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.

المقريزي: تقى الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت/٨٤٥هـ)

٢٨- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار "الخطط المقريزية" نشر مكتبة الثقافة الدينية، بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

٢٩- السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

٣٠- المقفى الكبير، نشر دار الغرب الإسلامى، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

الملطى: عبد الباسط بن خليل الشيشى بن شاهين (ت/٩٢٠هـ)
٣١- نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين، نشر مكتبة الثقافة الدينية،
القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

النويرى: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت/٧٣٣هـ)
٣٢- نهاية الأرب فى فنون الأدب نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، الطبعة
الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم (ت/٦٩٧هـ)
٣٣- مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، مطبعة دار الكتب المصرية، بالقاهرة،
١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

اليونينى: قطب الدين موسى بن محمد بن أحمد (ت/٧٢٩هـ)
٣٤- ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن،
الهند، الطبعة الأولى، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م.

ثانيًا: المراجع العربية:

جمال الدين: عبد الله محمد (دكتور)

٣٥- من تاريخ الشرق الإسلامى الحديث، نشر دار الثقافة للنشر والتوزيع، الفجالة،
القاهرة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

حسن: إبراهيم حسن (دكتور)

٣٦- انتشار الإسلام بين المغول والتتار، مقالات منشورة تباعاً بمجلة الجامعة
المصرية، القاهرة، ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م.

حسن: على إبراهيم (دكتور)

٣٧- تاريخ المماليك البحرية، نشر مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، الطبعة الأولى،
١٣٦٤هـ/١٩٤٤م.

حسين: محمد كامل (دكتور)
٣٨- طائفة الإسماعيلية، تاريخها، نظمها، عقائدها، نشر مكتبة النهضة المصرية،
القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.

حمدي: حافظ أحمد
٣٩- الدولة الخوارزمية والمغول، نشر دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى،
١٣٧٠هـ/١٩٥٠م.

خضباك: جعفر حسين (دكتور)
٤٠- العراق في عهد المغول الإيلخانيين، مطبعة العاني، بغداد، الطبعة الأولى،
١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

ربيع: حسنين محمد
٤١- النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، مطبعة جامعة القاهرة، الطبعة الأولى،
١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

الساعدي: محمد الشيخ حسين
٤٢- مؤيد الدين بن العلقمي وأسرار سقوط الدولة العباسية، مطبعة النعمان،
بالتجف، العراق، الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

سرور: محمد جمال الدين (دكتور)
٤٣- دولة الظاهر بيبرس في مصر، نشر دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى
(بدون تاريخ).

سليم: محمود رزق (دكتور)
٤٤- عصر سلاطين المماليك ونتائج العلم والأدب، نشر مكتبة الآداب، القاهرة،
الطبعة الأولى ١٣٨١هـ/١٩٦٢م.

شلبى: أحمد جاب الله (دكتور)

٤٥- موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، نشر مكتبة النهضة المصرية،
بالقاهرة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٧م.

الصدقى: رزق الله منقريوس

٤٦- تاريخ دول الإسلام، مطبعة الهلال بالفجالة، القاهرة، الطبعة الأولى،
١٣٣٥هـ/١٩٠٧م.

الصياد: فؤاد عبد المعطى (دكتور)

٤٧- المغول فى التاريخ، مكتبة الشريف وسعيد رافت للطباعة والنشر، القاهرة،
الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

عاشور: سعيد عبد الفتاح (دكتور)

٤٨- الظاهر بيبرس، نشر مكتبة مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م.
مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك، نشر دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة
الأولى، بدون تاريخ.

العبادى: أحمد مختار (دكتور)

٤٩- فى التاريخ الأيوبى والمملوكى، نشر مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، الطبعة
الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

العدوى: إبراهيم أحمد العدوى (دكتور)

٥٠- التاريخ الإسلامى، آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية، نشر دار النهضة العربية،
بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م.

العرينى: السيد الباز (دكتور)

٥١- المغول، نشر دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى،
١٤٠٢هـ/١٩٨١م.

الغزاوي: عباس
٥٢- تاريخ العراق بين احتلالين، ج ١ (حكومة المغول) نشر مطبعة بغداد، بالعراق،
١٣٥٣هـ/١٩٣٥م.

الغامدي: سعد (دكتور)
٥٣- سقوط الدولة العباسية، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى،
١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

فهمي: عبد السلام عبد العزيز (دكتور)
٥٤- تاريخ الدولة المغولية في إيران، نشر دار المعارف/ بالقاهرة، الطبعة الأولى،
١٤٠٢هـ/١٩٨١م.

قاسم: عبده قاسم، علي: السيد علي (دكتور)
٥٥- الأيوبيون والمماليك (التاريخ السياسي والعسكري) نشر مؤسسة عين للدراسات
والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١/١٩٩٥م.

القزاز: محمد صالح داود (دكتور)
٥٦- الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، مطبعة القضاء بالنجف،
العراق، الطبعة الأولى، ١٢٩٠هـ/١٩٧٠م.

هنداوي: محمد موسى (دكتور)
٥٧- سعدى الشيرازي، نشر مطبعة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى،
١٣٧١هـ/١٩٥١م.

يوسف: جوزيف نسيم (دكتور)
٥٨- العدوان الصليبي على مصر، مطابع رويال، الإسكندرية، الطبعة الأولى،
١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

ثالثاً: المصادر والمراجع الفارسية:

اشنایانی: عباس إقبال

۵۹- تاریخ مفصل ایران از استیلای مغول تا إعلان مشروطیت، جلد اول از حملة جنکیز تا تشکیل دولت تیموری، طهران ۱۳۱۲ هـ.ش.

ابن البیبي

۶۰- أخبار سلاجقة الروم "مختصر سلجوقنامه" نقله إلى العربية الدكتور/محمد السعيد جمال الدين، نشر الشركة الحديثة للطباعة، الدوحة، قطر، الطبعة الأولى، ۱۴۱۴ هـ/ ۱۹۹۴ م.

الجوينی: علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد (ت/۶۸۱ هـ)

۶۱- تاریخ جها نكشای، جزءان، نقله عن الفارسية وقارنه بالنسخة الإنجليزية الدكتور/ محمد التونجی، نشر دار الملاح للطباعة والنشر، حلب، سورية، الطبعة الأولى، ۱۴۰۵ هـ/ ۱۹۸۵ م.

خواندامیر: غياث الدين محمد بن همام (ت/۹۴۲ هـ)

۶۲- حبيب السير في أخبار أفراد البشر، از انتشارات: كتا بخانه خيام، خيا بان ناصر خسرو، طهران ۱۳۳۳ شمسی.

میرخواند: محمد بن سيد برهان الدين خواندشاه (ت/۹۰۳ هـ)

۶۳- روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، الجزء الخامس، نشر مكتبة الخيام ومكتبتى مركزى وبيروز، طهران سنة ۱۳۳۹ هـ.ش.

الهمذاني: رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة الهمذاني (ت/۷۱۸ هـ)

۶۴- جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيز خان من أوكتاي قاآن إلى تیمور قاآن) نقله إلى العربية الدكتور/فؤاد عبد المعطى الصياد، نشر دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ۱۴۰۴ هـ/ ۱۹۸۳ م.

جامع التواريخ (تاريخ المغول الإيلخانيين) مع مقدمة رشيد الدين، المجلد الثاني، نقله إلى العربية الأستاذ/ محمد صادق نشأت، الدكتور/ محمد موسى هندوي، الدكتور/ فؤاد عبد المعطى الصياد، راجعه وقدم له الدكتور/ يحيى الخشاب، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.

رابعاً: المراجع الأوربية:

ارنولد: توماس

٦٥- الدعوة إلى الإسلام، نقله إلى العربية الدكتور/ حسن إبراهيم حسن، والأستاذ/ عبد المجيد عابدين، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٧م.

استارجيان: ك.ل

٦٦- تاريخ الأمة الأرمنية، نشر مطبعة الاتحاد الجديدة، الموصل، العراق، ١٣٧١هـ/ ١٩٥١م.

بارتولد: فاسيلي فلاديمير وفتش

٦٧- تاريخ الترك في آسيا الوسطى، نقله من التركية إلى العربية الدكتور/ أحمد السعيد سليمان، وراجعه الأستاذ/ إبراهيم صبرى، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م.

٦٨- تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، نقله من الروسية إلى العربية الأستاذ/ صلاح الدين عثمان هاشم، نشر المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

براون: ادوارد

٦٩- تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى، نقله من الإنجليزية إلى العربية الدكتور/ إبراهيم أمين الشواربى، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.

بروكلمان: كارل

٧٠- تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية الأستاذان/نبیه أمين فارس، منير البعلبكي، نشر دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

خاتجی: انطوان

٧١- مختصر تواريخ الأرمن، نقله المؤلف نفسه إلى العربية عن مؤلفات أرمينية، طبع في أورشليم (القدس) في دير الأباء الفرنسيسكانيين ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م.

رنسمان: ستيفن

٧٢- تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، نقله عن الإنجليزية إلى العربية الدكتور/السيد الباز العريني، نشر دار الثقافة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

شبولر: برتولد

٧٣- العالم الإسلامي في العصر المغولي، نقله إلى العربية الأستاذ/خالد أسعد عيسى، راجعه وقَدَّم له الدكتور/سهيل زكار، نشر وتوزيع دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

فامبري: أرمينوس

٧٤- تاريخ بخاري، نقله إلى العربية الدكتور/أحمد محمود الساداتي، وراجعه وقَدَّم له الدكتور/يحيى الخشاب، نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م.

لامب: هارولد

٧٥- جنكيز خان إمبراطور الناس كلهم، نقله إلى العربية اللواء بهاء الدين نوري، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

لاورست: هنري

٧٦- نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسية والاجتماع، نقله إلى العربية الأستاذ/محمد عبد العظيم على، وقدمه وعلق عليه الدكتور/مصطفى حلمي، نشر دار الثقافة، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ/١٩٧٧م.

لوبون: غوستاف

٧٧- حضارة العرب، نقله إلى العربية الأستاذ/عادل زعيتر، نشر شركة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

لينبول: ستانلي

٧٨- سيرة القاهرة، نقله إلى العربية الدكتور/حسن إبراهيم حسن والدكتور/علي إبراهيم حسن، والأستاذ/إدوار حليم، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

ماير: هابس ابرهارد

٧٩- تاريخ الحروب الصليبية نقله إلى العربية الدكتور/عماد الدين غانم، منشورات مجمع الفاتح للجامعات، ليبيا، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

موير: وليم

٨٠- تاريخ دولة المماليك في مصر، نقله إلى العربية الأستاذان محمود عابدين، سليم حسن، نشر مطبعة المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م.

Bolye: J.A

81. History of Iran. Vol. 5 the Saljuq and mongol Periods, At the University press, Cambridge, 1968.

Dohsson: M le Baron

82. Histoire des mongols, de puis tchinguiz khan jusq'a timour
Beyou.

Howorth: Sir Henry

83. History of the mongols, London, 1876.

Schneider: Bret. E.

84. Mediaeval researches from Eastern Asiatic Sources
(st Peters burg – London 1887).

Grousset: Reme

85. L. Empire des steppes, Paris, 1948.